أصحاب الكهف
فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى

اسم الكتاب: أصحاب الكهف

اسم الكاتب: د. أحمد محمد النزال الشديفات

نـوع العمل: سيرة نبوية

عدد الصفحات: 112

الرقم الدولي EBIN: 16-147-01-210906

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2021م / 1443هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر. ©

أصحاب الكهف

فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى

سيرة نبوية

د. أحمد محمد شديفات

دار البسمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

{لمحة في القصص القرآني}

القصة في القرآن الكريم لا تقارن بالقصص والحوادث والوقائع البشرية الآنية؛ فالقصة في القرآن تأتي ليبقى أثرها دائم العطاء وظلالها قائم في التَّأمّل والتَّدبّر والاستدلال على عظمة الله الخالق الواحد القهار، وما في القصة حَقَائِق وَاقِعِيَّة وليست من نسج الخيال، مصدرها من أوثق المصادر ومنبعها القرآن الكريم، جاءت من أجل الهداية والموعظة والاعتبار، وقد تكون حصلت مع الأنبياء أو أقوامهم أو مع أمم سادت ثم بادت، ودور القصة في هذا المجال كشف حقيقة تلك الأقوام والأشخاص والأحداث، ومهمتها توضيح وقائع أريد لها أن تبقى عبرة على مر الزمان...

وقد صرَّح القرآن في أكثر من مكان الهدف من سوق تلك القصص، منها ما كان موجّهًا فيه الخطاب للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هود: 120، خصَّ المؤمنين لأنّهم المتَّعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء،

وهدفها الأول والأخير عرض الحال في مقال من أجل تثبيت وتطهير القلوب بالإيمان بالله والتوحيد...

وتختلف القصة القرآنية، فالمؤمن عندما يتلوها يتقرَّب بها إلى الله ويؤجر على تلك التلاوة فتترسخ في فكره ويطمئن قلبه لها على خلاف القصص الأخرى للتسلية والمتعة وبدون أجر، وقارئ قصة القرآن يعيش وقائع القصة يستفيد ويعتبر، وكأنّه أحد أشخاصها، وفرد من أفرادها ويتحرك بحركتهم ويشعر أنّها موجهة له، ويسلك مسلك أصحابها الطيبين ويتجنب انحراف المنحرفين، مثال ذلك لو أخذنا قصة أصحاب الكهف بقراءتها كأنّك تعايش حياتهم ذهابا وإيابًا.

فهي قصة واقعية وإن مرَّ عليها مرور الزمان وحصلت لأفراد من أمة أخرى قد خلت إلّا أنّ فيها عبر ما زالت تنبض بالحياة والحركة الإيمانية، وتُصوِّر حالة باقية ما بقي الإنسان، فهي تمثل جانب الخير وأهله، وتشير إلى جانب الشر وأتباعه، وهي حالة مستمرة باقية مصاحبة للحياة البشرية تدلُّك على الإيمان والتقوى والصلاح.

الغريب أنَّ القصة القرآنية مصدقة موثقة موقعة يطمئن لها الإنسان خاصة المؤمن؛ لأنّها مختومة بخاتم القرآن الكريم ومصدرها الرحمن

الرحيم: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هود: 49، أمّا قصص البشر يخالطها الأهواء والأذواق والتملق والنفاق والرياء والسمعة والأخبار وغيرها كثير، وقد تكون واقعية أو ضرب من الخيال وتنتهي أحداثها سريعا أو قد تطول، فشتّان بين الثرى والثريا بعد هذه المقدمة المبسطة كمدخل لقصة أهل الكهف والاستفادة مما ورد عنها في القرآن الكريم والسنة النبوية من أجل نشر الفضيلة وتوحيد الذات الإلهية.

إذًا لا بدَّ من الوقوف على أهمية سورة الكهف التي جاءت في بداية النصف الثاني من القرآن الكريم، وسنبدأ تبعًا وفق كل آية بمشيئة الله وتوفيقه...

أهمية قصة أصحاب الكهف

جاءت هذه القصة كغيرها من القصص القرآني، الهدف منها تأدية رسالة وتأكيد على تثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن تبعه على أمر الدين، وبيان أخبار الأمم السابقة من المهتدين والعصاة المذنبين الذي يعلم حالهم ربّ العالمين دون مهادنة أو محاباة لأحد ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ يوسف: 3.

وسأقوم بجمع الفوائد والفرائد في نقاط من باب التسهيل والتيسير على القارئ الكريم عن سورة الكهف

1) فالسورة بكاملها جاءت تحت مسمى سورة الكهف، وبها بدأت بعد "الحمد لله" والثناء على الله بإنزال القرآن، وبدأت ببشرى أولى للمؤمنين الذين يعملون الصالحات أنَّ لهم أجرًا حسنًا قائمًا دائمًا ﴿ماكثين فيه أبدًا﴾.

ثانيا:-إنذار شديد اللهجة للمشركين ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ والإنذار بحد ذاته عقاب.

2) نقلة كريمة لبيان قصة أصحاب الكهف دون تطويل، وهذا أفضل أسلوب في الطرح القرآني الدخول إلى الموضوع فورًا دون تردد؛ لأنّ الهدف هو الإقناع وإيصال الرسالة للمقصودين

المستفيدين المؤمنين بالذات ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف: 176.

3) لم تسلك الآيات القرآنية الأسلوب التاريخي في سرد أخبار أصحاب الكهف وإنّما نحت الآيات نحو عنصر التشويق في الطرح؛ وذلك من خلال اختيار الألفاظ في التصوير القرآني، وجاءت الإشارة والتنويه إليهم صراحة ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ فكلمة عجبًا أيقظت الفكر وجلبت الانتباه إلى أنّ هذه القصة عجيبة ومع هذا يوجد ما هو أعجب منها في القرآن الكريم.

4) من أساسيات القصص القرآني أن يترك مجالًا للتأمل والتفكير بعد أن يعطيك مقدمات واضحة وتمهيد، ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ...﴾ إذًا الحديث سيكون عن فتية آمنوا بربّ العالمين وزادهم ربّهم هدى، وهو نوع من التشويق بمتابعة قصة هؤلاء الفتية.

5) وقد وصلت إلى نتيجة أن قصة أهل الكهف هي لمن يبحث عن الحقيقة فهم أهل توكل وإيمان بالله من خلال دعائهم ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

6) الآن القصة دخلت مدخلًا ربانيًّا يستلزم من المؤمن التسليم والتصديق والإيمان؛ لأنّ الناقل للقصة هو القرآن، وغير المسلم طرحت له وعليه بطريقة الإقناع من خلال قصة أصحاب الكهف، وإعمالًا لعقله وفكره بمقارنة بسيطة وملموسة بين حياتين: حياته، وحياة هؤلاء الفتية، وعليه المقارنة والاستفادة ومنها يعرف النتيجة وطريق النجاة.

7) كل ما جاء في الآيات القرآنية من بداية دخول الفتية إلى الكهف إلى وقت بعثهم مرة أخرى كلّها دلائل على قدرة الله فلا داعي لإعادتها، فهي توضح وتستقصي وتقنع من سعى إلى البحث عن الحقيقة الإيمانية فيزداد إيمانًا إلى إيمانه، وغيره يزداد بعدًا وحرمانًا بسبب شركه وإلحاده.

وكما بدأت السورة بالبشارة ختمت بها لمستحقيها ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا... فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ دعوة للعمل الصالح الذي لا يشوبه شائبة الشرك بالله.

نصيحة إلى قرّاء قصة الكهف: التلاوة والخشوع والتأنّي وتوخّي الفوائد والعبر والمواعظ خاصة من الشباب فهي رسالة موجهة لهم،

وقد تخلّلها عدّة صفات تخصُّهم بالذات، ويكفي وصف هؤلاء أنّهم فتية آمنوا بربِّهم وزادهم هدى وعاشوا وماتوا وفي قصتهم عبرة للأبد ومثالًا يحتذي للمتقين،

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يوسف: 111.لنكن من أصحاب العقول والألباب ونفكر في قصص القرآن الكريم...

المقدمة والمدخل

يُعدُّ القصص القرآني وسيلة من وسائل التربية بالقدوة وغرس المثل العليا في النفوس الطيبة من أجل إصلاح القلوب والجوارح والاحاسيس، من خلال بيان أحوال الأمم السابقة والأحداث الواقعة فيهم ومنهم وأمثلة على ما حلَّ بهم من صروف العذاب والتحذير من مآلهم وتجنب حالهم...

وكثير ما يأتي القرآن الكريم وهو يُحدِّثك عن قصة قوم ثمَّ ينقلك من باب التذكير إلى قصة قوم آخرين، فهذا الاستطراد قد يكون تطابق لحال الطرفين ولكي تبقى أنت على ارتباط مع جميع جزيئات الأحداث دون نسيان ما قرأت سابقًا...

وقصة أصحاب الكهف من القصص النادرة، وقد وردت في سورة الكهف، وهي برهان لكل إنسان على قدرة الله، وملابسات هذه القصة تدخلت فيها أكثر من قدرات المولى جل وعلا سبحانه وتعالى لتبرهن كيف يتمُّ الموت والبعث للإنسان أقرب مثال، فهذا الأمر ليس للتسلية والسرد القصصي؛ وإنّما لتثبيت الإيمان وبيان وإقناع للمنكرين وحجّة عليهم يوم الدين، وفي هذه القصة مَنَّ الله

على هذه الأمة بإرسال وإنزال القرآن الكريم على خير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم ليدلّهم به على الله.

وأوردت القصة القسط المشترك بين بني البشر سواء السابقين أو اللاحقين، فالقاسم المشترك بينهم يلتقون عليه من خلال سلوكهم إما على طاعة لله بعد مشاهدة وسماع لما ورد من أخبار الأمم السابقة وتصديقه والنتيجة هو الإيمان، وعند الآخرين الكفر والإلحاد والنكران لعدم الإذعان.

كما تطرح القصة أنّ السنن الكونية خاضعة لإرادة الله، فإن خرقت هذه النواميس فهي دليل وحجّة لمن قامت عليه، ومن خلال قصة أصحاب الكهف وتسلسل الأحداث وتشارك الكثير من الآيات الكونية المختلفة في الحدث مثل الشمس والأرض والتقليب تتجلى القدرة الإلهية.

وهذا التسخير كله بقدرة الله وإرادته، وقد اعتمدتُ في هذا التفسير على أمّهات المصادر والمراجع والمعاجم في هذا الباب بأسلوب مبسط ومرجعية موثقة وأرجو من الله القبول والثواب وإليه المآب.

فضايل سورة الكَهْف

قد تضمنت سورة الكهف أكثر من قصة منها:

أولًا: السورة بدأت بقصة أصحاب الكهف لأهميتها.

ثانيًا: فتنة المال، وضرب الله له مثلاً بقصة صاحب الجنتين: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾.

ثالثًا: فتنة العلم والمعرفة، وضرب لها مثلاً بقصة موسى مع الخضر عليهما السلام.

رابعًا: فتنة الجاه والسلطان، وضرب على ذلك مثلاً بذي القرنين.

وبقيت فتنة الدجال ستأتي بعلم الله في آخر الزمان، وسورة الكهف هي العاصمة من فتنته بإذنه تعالى.

وقد سمّيت سورة الكهف بهذا الاسم وعرفت به، ومن فضائلها التي وردت فيها عدة أحاديث منها:

1) عن إسماعيل بن أبي رافع قال: بلغنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء والأرض شيعها سبعون ألف ملك سورة الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر الله له بها إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام من بعدها وأعطي نورًا يبلغ السماء ووقي من فتنة الدجال" ورد في الدر المنثور للسيوطي

(5 /475)، حتى لمن يقرأها ويتلوها مثل هذا العدد من الملائكة تشيعه بكل حفاوة وتكريم.

2) روى الإمام مسلم عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: "مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْف عُصِمَ مِنْ الدَّجَّالِ"، فهي تعصمك وتحفظك من شرور الفتن فقد تحدثت السورة عن الفتن وأشدّها الفتنة في الدين، ومنه عَصَمَ اللَّهُ عَبْدَهُ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ كفتنة الدجال أي حَفِظَهُ، وصَانَهُ منها.

3) روى الإمام مسلم قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "...فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ –أي الدجال– فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ فَإِنَّهَا جِوَارُكُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ".

4) وقد حثَّ صلى الله عليه وسلم على قراءتها يوم الجمعة بالذات، واستحَبَّ جمهور الفقهاء منهم الحَنَفيَّة، والشافعيَّة، والحَنابِلَة، قراءةَ سورةِ الكهفِ يومَ الجُمُعة واختاره ابنُ الحاج من المالِكيَّة، عن أبي سَعيدٍ الخُدريّ –رضي الله عنه– عنِ النبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: "مَن قَرَأَ سورةَ الكَهفِ يومَ الجُمُعةِ أضاءَ له من النورِ ما بَينَ الجُمُعتينِ".

5) وعن ابن عمر –رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة، وغفر له ما بين الجمعتين" الترغيب والترهيب 298/1.

6) وعن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– قال: "من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق" رواه الدارمي (3407) والحديث: صححه الشيخ الألباني في "صحيح الجامع" (6471).

7) قال صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق" رواه البيهقي وصححه الألباني.

8) قال صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة، وغفر له ما بين الجمعتين" رواه الحاكم وصححه الألباني.

وقال: سمرة بن جندب –رضي الله عنه–: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظا لم تضره فتنة الدجال".

9) وروى الإمام أحمد في مسنده: "عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: مَنْ قَرَأَ أَوَّلَ سُورَةِ الْكَهْفِ وَآخِرَهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا مِنْ قَدَمِهِ إِلَى رَأْسِهِ وَمَنْ قَرَأَهَا كُلَّهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ"، وأرى جمعًا بين مما ذكر في قراءة أولها وآخرها؛ فالقارئ عادة يقرأ كامل السورة تبركًا وأجرًا ولا يختصر قراءة أولها فقط والله أعلم، فهذا هو الأفضل والأحواط وزيادة في الخير.

10) وعنِ البُراء بنِ عَازِبٍ –رضيَ اللَّه عَنهما– قَالَ: "كَانَ رَجلٌ يَقْرَأُ سورةَ الكَهْفِ، وَعِنْدَه فَرسٌ مَربوطٌ بِشَطَنَيْنِ فَتَغَشَّته سَحَابَةٌ فَجَعَلَت تَدنو، وجعلَ فَرسُه ينْفِر مِنها. فَلَمَّا أَصبح أَتَى النَّبِيَّ ﷺ. فَذَكَرَ له ذلكَ فَقَالَ: تِلكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلتْ للقُرآنِ" متفقٌ عَلَيْهِ، وفيها دليل اعتزال الفتن وأهلها وتجنب الخوض فيها أو الانتصار لها خوفًا من القتل والتقتيل والتشريد، وهي حرز لك من الدجال فحافظ على تلاوتها كل جمعة وغيرها من الأوقات والأيام، وتذكر ما فيها من قصص وبيان وعبر وحكم وأحكام وقصة أصحاب الكهف بوابة ومدخل لهذه السورة

﴿...إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى...﴾ ويكفيك ما جاء في القرآن الكريم من بيان ومن أقوال سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم في هذه السورة الكريمة، وهذه نصيحة لحفظها.

الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ

نبدأ ببيان ما هو الكهف ففي العرف السائد هو تجويف طبيعي في جبلٍ أو في سفحه أو شقٍّ بين صخوره يسمح بدخول الإنسان فيه من مدخل أو فتحة فيه، وهو أقرب ما يكون بالْمَغَارَة الصغيرة وَأَوْسَع مِنَ الغَارِ، قال تعالى:-

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً...

أَوْ مَغَارَاتٍ...

أَوْ مُدَّخَلًا...

لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ التوبة: 57

وهذا دليل على أنّ الهارب الخائف يلجأ لدخول ما يصادفه في طريقه مما ذكر أعلاه...

إذًا هذه المسميات:- الكهف، والغار، والمغارة، والمَلجأ، هي مكان الإيواء والاعتصام والخلوة وملجأ للاحتماء بها ممّا قد يلحق بالهارب من ضرر أو أذى، وعنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: "...ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ..."، وعنها كذلك:

"ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ...".

إذًا الكهف أو الغار موقعه في الخلاء بعيدًا عن الناس وعن الضجيج وهذه ميزة خاصة له ومدعاة للهدوء والصفاء وهو خلوة المتعبد للتأمل والتفكر في آلاء الله، وهذه روابط مشتركة بين الأنبياء المرسلين والصالحين والعباد، وهي خلوة لله ومع الله...

الكهف غير الرقيم قولًا واحدًا إلّا أنّهما يشتركان معًا بواو العطف وكلاهما قدّما خدمة لأصحاب الكهف في الإيواء والحفظ والذكر والتثبيت، وقد بيَّنا ما هو الكهف فيما سبق، وسُمّي أصحابه باسمه أصحاب الكهف؛ وذلك لطول مدة مصاحبتهم وإقامتهم وملازمتهم ومكوثهم فيه، كالصاحب الذي يلازم صاحبه ولا يفارقه.

وقد قيل الرقيم نسبة إلى حجر رُقِّمَ فيه أسماؤهم أو القرية التي لجأوا إلى كهفها، وقال العلماء أكثر من قول في الرقيم... وكلمة الرقيم هي أصلٌ يدلُّ على خَطٍّ وكتابةٍ وما أشبَهَ ذلك، فالرَّقم هو الخَطّ والرقيم الكتاب، وتشير كلمة الرقيم لما هو مكتوب أو موضوع عليه: الكتابة والخَتْم، ورقّم الكِتابَ: بمعنى بَيَّنَه، ومنه كتاب مَرْقُوم أي قد بُيِّنت حروفه بعلاماتها من التنقيط والرَّقم وكلها بمعنى ودلالة

متقاربة، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي كتاب مفروغ منه محدد مكتمل، وهذا كلّه بيان لمعنى الرقيم في اللغة تقريبًا.

أمّا أهل التأويل: اختلفوا في المعنيّ به، فقال بعضهم: هو اسم قريتهم، أو واد كهفهم، أو لوح من حجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف أو شيء من هذا القبيل كُتب فيه كتاب.

وقال أهل الأخبار: إنّ ذلك لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وخبرهم حين أوَوْا إلى الكهف، ومنها أنّه اسم القرية التي خرج إليها هؤلاء الفتية.

والذي أميل إليه بما يتفق والأقوال المذكورة آنفًا أنّ الرقيم هو اسم القرية التي فيها الكهف ومنه رَقِيم تعني مكان كهفهم، وعندما تسأل المجاورين الآن عن أصحاب الكهف اليوم يقال لك في بلدة الرقيم أو الرجيم ويقصدون قرية الرقيم التي رقمت فيه أسمائهم، وكل الاحتمالات واردة في الأقوال أعلاه والله أعلم، وموقعهم جنوب شرق العاصمة الأردنية/عمان يبعد عنها 13 كم في منطقة سحاب كما أشير إليه من قبل بعض الرحالة والمؤرخين. وقد شاهدت كهفهم في قرية الرقيم، وواجهة مدخل الكهف الوحيد بانحراف نحو

الجهة الجنوبية الغربية وهذا يتفق وشروق الشمس عند طلوعها من على يمين الكهف دون أن تدخله فقط على عتبته صيفًا؛ لأنّ الحرارة هي التي تصل بذاتها إلى تلك الفجوة التي أشار إليها القرآن، وعندها تبدأ تميل عن الكهف بأشعتها بدءًا من الظهر، أمّا في فصل الشتاء والاعتدالين فقد تصل أشعة الشمس إلى الفجوة بطريقة الانتشار لا التركيز –وقد ذكر– ياقوت الحموي في معجم البلدان أنّ هذا الكهف في أطراف بلاد الشام، والذي أرى أنّ منطقة بلاد الشام فهي مهد الرسالة ومهبط الوحي....

وقد ذكر الإمام الفخر الرازي في تفسيره (453/21) عدّة أقوال في تعيين زمان أصحاب الكهف ومكانهم، ثم قال: "العلم بذلك الزمان وبذلك المكان ليس للعقل فيه مجال، وإنّما يستفاد ذلك من نص، وذلك مفقود، فثبت أنّه لا سبيل إليه"، وعلى هذا لا يترتب على المكان والزمان أمرا مهمًا بقدر العبرة بقصة أصحاب الكهف كما وردت في القرآن الكريم، والله بذلك عليم.

كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا

بعد أن جئنا وراءهم إلى الكهف نأتي لكي نعرج على أحداث معجزة قصة أَصْحَاب الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ، وهي من القصص القرآنية المشوّقة الواقعية التي لا تمل النفس من تكرار تلاوتها، فقد حصلت فيما مضى من الزمان ولا يستطيع أن ينكرها إنسان لأنّها جاءت فيها آيات تتلى في القرآن.

فبدأ الإعجاز بأفضل بيان موجهًا الخطاب للأمة من خلال رسولها محمد صلى الله عليه وسلم ولكل عاقل؛ حتى تكون الآيات المعجزات التي تساق لإثبات الوحدانية والقدرة الإلهية حجة عليهم يوم الحساب.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، فالرسول يؤمن بهذه الآيات يقينًا لا يخالطه الشك، أمّا الغير هو من يخالطه الشك فكان الخطاب لهم بالذات والتعجب من خلاله صلى الله عليه وسلم.

وبما أنّ السورة مكية فهذا الطرح لم يخطر على عقول مشركي مكة أن يأتي القرآن بقصة أصحاب الكهف وما حصل لهم من نوم على غير المعهود في حادثة حارت فيها عقول الأمم السابقة واللاحقة،

وجاءت تفاصيلها من ربٍّ معبود فهي للمشركين موضع اختبار وامتحان لكي يؤمنوا بما جاء به القرآن الكريم، وهي للمؤمنين زيادة تثبيت وإيمان.

فالقوم بعد أن سمعوا نبأ القصة ونُزولها حاصوا ولاصوا وغاصوا وذهبوا يمينًا وشمالًا، وبدأوا يبحثون ويفتشون ويتهامسون ويتشاورون، ثمَّ نهضوا وقالوا وجدنا ضالتنا بالطعن في هذه القصة، ففكروا مليًّا وهرولوا نحو أهل الكتاب لسؤالهم. مع أنَّ الواجب أن يشكروا الله الذي أرسل لهم رسولًا من أنفسهم لهدايتهم، وكشف لهم ما أخفاه أهل الكتاب من حالهم، قال الله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: 151.

واختاروا منهم رجلين هما: عقبة بن أبي معيط، والحارث بن النضر، وذهبا يسألان اليهود، فقالوا لليهود: أسعفونا عن ماذا نسأل محمدًا؟ عن قصة الكهف، فأشاروا عليهم من الضلالات التي ورثوها أبًا عن جد...

طار المشركون فرحًا في حمل سؤالهم للرسول على اعتبار صحته ففاجأهم القرآن بالجواب القاطع بقول الله الرحمن الرحيم: ﴿أَمْ

حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، أي سؤال هذا العجيب بالنسبة لكم ولهم لدينا آيات أعجب من ذلك بكثير مما حسبتم وقدرتم فالله قادر على كل شيء، عندها ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾.

فلله الحمد والمنّة، وكأنّه صلى الله عليه وسلم استسخف عقولهم ودرايتهم ومعرفتهم وإنكارهم ومن أشار عليهم من الْيَهُود فهم قَوْمٌ بُهُتٌ مضللون ليومنا هذا، فهم يعلمون علم اليقين أنَّ أصحاب الكهف والرقيم قد وردت أخبارهم في التوراة والإنجيل، وقد أخفوا حقائق كثيرة مماثلة وقد كشفها القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ...﴾ لا يوجد بيان أكثر من ذلك.

فإن كنتم تظنون وتحسبون أنّ قصة أصحاب الكهف التي ظهر فيها ما يخالف النواميس الكونية التي عهدتها البشرية إن كان الأمر خارقًا للعادة عجيب في حساباتكم فلما لا تعجبون من إعادتكم بعد هلاككم وقد بليت أجسادكم!

قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وقل لهم يا محمد: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ق: 15.

فقصة أصحاب الكهف والرقيم بجانب الآيات والمعجزات الكثيرة ليست عجيبة؛ فأنتم في كل يوم تموتون وتحيون في نومكم ومنه تبعثون، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الزمر: 42.

وبذلك ذهبت حيلتهم وفكرتهم وتضليلهم أدراج الرياح، فآمن من آمن وكفر من كفر، وفشل مشروعهم بالرَّد على قصة أصحاب الكهف التي وردت في القرآن، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر.

إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ

اختصر القرآن الكريم سيرة هؤلاء الفتيان في نقلة سريعة؛ وإذ نحن معهم في الكهف دون أن يذكر موقع المكان وما دار من أحاديث بينهم واستعدادات وما خططوا له من عملية اختفاء ثمَّ تواروا عن الأنظار وكيفية التقائهم مع بعضهم البعض واختيارهم وصحبتهم ووقت خروجهم وملاحقة قومهم لهم وهل كان أحد يزودهم بالأخبار والطعام والشراب وهل بمجرد دخولهم ناموا وحصل لهم الذي حصل، إلى غير ذلك من أسئلة كثيرة طرحت وتركت دون جواب، وهذا عنصر التشويق في أسلوب قصة القرآن الكريم دون إسهاب أو إطناب، فالقارئ يحب الاطلاع على مثل هذه التساؤلات.

إلّا أنّ القرآن قد تحدَّث عن الأهم والمهم في حياتهم ببيان وإيجاز وإعجاز وإتقان؛ فجعل القارئ الكريم يعيش معهم حياتهم وكأنّه في ذلك المكان والزمان، ففي كل وقت تقرأ وتتلو القرآن ينقلك الحدث وإذا بك أمام الكهف أو على مدخله أو بينهم تنظر أجسادهم ومعهم كلبهم. ويجب التالي للقرآن أن يرى ويسمع قصتهم ويتابعها معهم وكأنّ القرآن للتو نزل فيهم، وهذا الشوق

قصد كل مؤمن بالله أن يطّلع على تلك القصة ويعرف لما كانت وما هدفها حتى أنّها بقيت قرآنًا يتلى ويؤجر على قراءتها كل مسلم بإحسان، وكذلك تعصمه من فتنة الدجال في آخر الزمان!

فأول صفة من صفاتهم أشار لها القرآن أنّهم فتية شباب في مقتبل أعمارهم يمثلون قوة الإيمان في طاعة الرحمن، فقال عنهم الْمَلِكِ الدَّيَّانِ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، الإيمان في مقتبل العمر هداية ربانية لها أهمية فهي أفضل دليل على مستقبل واعد وتوفيق من الله.

فما أحلى الإيمان في نفوس الشباب فهو تقويم وعزم وتصميم، فالفتوة غرس جميل ونشء طيب وزيادة ورعاية وعناية من الله لهم لا ضياع ولا ميوعة وإنّما تربية حسنة مفيدة ومتابعة سليمة والنتيجة أخلاق نبيلة كريمة، الحديث: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: ...وشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّه". هنا بدأت ملامح القصة تظهر بأنّ الإيمان له ميزة ومنقبة وقيمة خاصة في نفوس الشباب فهو الاستقامة بذاتها والضبط والانضباط على وفق المنهج الرباني، وقد تميز هؤلاء الفتية بهذا الالتزام على هذا النهج القويم ومن قصة أصحاب الكهف نستفيد؛ ففيها تلميح وتصريح لشباب

الأمة الإسلامية أنّ هؤلاء قدوة وأسوة اختارهم القرآن وأحبّهم الرحمن وزادهم هدى وهيأ لهم المكان ورعاهم حفظًا من كل الأوهام، وهي دعوة عتاب وإعذار للشباب لبيان أهمية الوقت والأعمار والأعمال والأفعال والأقوال وتحين فرص الشباب قبل فوات الأوان للحصول على أفضل منزلة عند الله في أحسن مكان ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران: 133.

هذه هي قصص القرآن ليست للتسلية أو العبث أو ضرب من الخيال أو من قصص تسلية الأطفال؛ إنّهم فتية تخلوا عن كل شيء يخالف مراد الله أو يراود خاطرك ومخيلتك، تركوا الأهل والزوجة والولد والمال وهجروا زينة الحياة الدنيا وتمسكوا بدين الله والإيمان وحملوا رسالته، وهذا شرف أن تحيا وتموت لهدف شريف نبيل يخلّد ذكراك في حياتك وبعد مماتك.

فقد تخلوا عن أهليهم ومدينتهم وعملهم وبيوتهم وتركوا كل شيء خلف ظهورهم فرارًا بدينهم، تركوا الدنيا لأهلها ومحبيها ولم يتأقلموا مع ذلك المجتمع الخارج على تعاليم رسالة الرسل ولا يتفق مع مبادئهم وإيمانهم. خرجوا دون أن يؤذوا أحدًا أو يدمروا بيتًا أو

يقتلوا إنسانًا أو يرهبوا امرأة أو طفلًا انتقامًا لأنفسهم، وإنّما اعتزلوهم وكفرهم ومن أجل الله، وأصبحت حياتهم ومماتهم قصة أخرى تركت أثرًا جميلًا وعملًا صالحًا وسطرت سيرة حسنة خالدة باقية وجاءت قصة في القرآن تتلى آياتها آناء الليل وأطراف النهار.

وكانت دعواهم بعد أن تخلوا عن كل شيء: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾، انظر كلمة "إِذْ أَوَى" اتخذوا الكهف مأوى لهم بكل اطمئنان كونه ترتيب الرحمن، وطلبوا من الله حاجتين لا ثالث لهما بصيغة الدعاء:

فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾، هذا أحلى دعاء منك إلى الله وهذه أول رسالة للأمة بطلب الرحمة ممن يملكها بالذات "من لدنك" لا من غيرك يا الله، فمن كان بحاجة لمثل هذا الدعاء وضاقت عليه الحياة وهمومها وانقطعت به السبل ليتوجه لربِّ العالمين بصدق وأمانة فهو يعرف مكانك ومقالك وحالك ومآلك...

ثانيًا: أصحاب الكهف طلبوا وقالوا لربِّهم: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، أيّها المؤمن لا تغفل عن ذلك فالرشد لك في كل شيء من حياتك حتى تستقيم، هو بيد الله ويحتاج منك فقط نية الإخلاص

بالطاعة والعبادة لله وحده، وبعد تقديم العمل يأتي الطلب "وهيئ لنا" فأنت يا رب لا أحد غيرك يهيئ لنا من أمرنا الرشد سواك.

وانظر التوافق بين كلمتي: أووا إلى الكهف الخالي، وتوجه الطلب والدعاء لله لتَهْيِئَة الكهف لهم في كل ما يحتاجونه، وقد تحقق مرادهم وتحصل لهم الأمان.

هذه رسالة إلى شباب الأمة الفتية في كل مكان وزمان: أُووا إلى ربكم لا لأحد غيره واطلبوا منه في مثل هذه الظروف الصعبة الرحمة وأن يهيئ لكم حياة كريمة ويجعل لكم من أمركم رشدًا، دعاء مختصر جميل بدون تطويل يتطلب الرجوع من أقرب طريق وأقصرها للعودة لله دون توانٍ قبل أن تضيع الفرصة ويفشل جيل الشباب ومستقبله فشلًا ذريعًا..

يا سلام لما ربنا يهيئ لك الظروف وييسر لك الأمور وتصبح وتمسي من أهل الصلاح والتقوى والمعروف، ومن أحلى وأجمل الكلام هذا الدعاء: "رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً"، هل يوجد أفضل من الرحمة! حتى كلمة رحمة لها وقع مميز وظلالها وأرف وفيها شعور مريح للنفس يجلب الطمأنينة والسكينة، وهذه الرحمة لا يقدر عليها إلّا الله فهي طلب ورجاء منك بتذلل وخشوع لله لكي ينشر رحمته عليك، فهي

من صفات الله القائل عن نفسه جل في علاه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، هل بقي لنا شيء نرجوه إلّا الله! فقد آواهم إلى كهف أمين وجاء فيه آيات وذكر حكيم، وهذه من فوائد قصة أصحاب الكهف.

فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ

الآن الفتية همّوا بدخول الكهف أو قد دخلوه فعلًا مع دعائهم لله مخلصين له الدين حنفاء تحفهم رعاية الله، وبدأت الظروف تتسارع نحو حياة جديدة يتغير فيها نمط حياتهم عما سبق ويتهيأ المكان والزمان وفق مراد الرحمن الرحيم لهم. وتسلسل الآيات متسق مع بعضه البعض ومع الحدث، فَقَالُوا: "رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً" دعاء تعليم وتشريف وتربية لنا كمسلمين في كيفية توجيه الطلب بأدب من ربِّ العالمين، ثمَّ طلب آخر: "وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا" يسِّر لنا أمورنا كلّها يا من بيده كافة الأمور والتقدير.

فهذا سلوك الدعوة ممن توكل واعتمد على الله في شؤونه وسلم أمره له، كيف لا وهو خالقه، والله يغمر برحمته من أطاعه، وفعلًا قد هيأ لهم من أمرهم رشدًا، ومعنى رَشَدَ أي أَصابَ واهْتَدَى واسْتَقامَ، وقد كانت هذه حالهم، فحلّت عليهم عناية الله وقدرته وترتب لهم كل ترتيب وتهيئ لهم إرادته كل ما يحتاجونه مما لا يتوقعه أحد أو يحسب له حساب.

وهذه أول وسيلة من وسائل الراحة الانقطاع عن العالم الخارجي، فضربنا على آذانهم، قد ضرب الله لهم ومنع عنهم كل ما يعكر

ويكدر صفو نومهم من المنقصات الصوتية المزعجة وغيرها لكي يتحقق الإعجاز. انظر كلمة "فضربنا"، من الضارب؟ الله!!! والضرب على منطقة مخصوصة للكل بالتساوي ضرب مقصود فيه فائدة لا مضرة منه عليهم ولا ضرر مطلقًا.

تصور لو ضربك إنسان هل في هذا الضرب فائدة لك دون وجع؟ فقد يعطل أعصاب حاسة السمع عندك إلى غير رجعة، أمّا ضرب الله دون وجع وإنّما ضرب من نوع آخر تعطيل مؤقت سنين عددًا، يشبه الذي يسحب واصل الكهرباء ويعيده مرة أخرى، ولله المثل الأعلى وهكذا عودة السمع لهم "لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ"، إذًا باقي الأعضاء لم يتعرض لها القرآن ليترك لتفكيرك مجال الامعان والتفكر، فرضًا لو تركوا بدون ضرب على آذانهم لكان كل صوت يوقظهم وينبههم وقد يتركوا مكانهم، فالضرب كان مانع للحركة وما يتبعها من طلب أكل وشرب كما حصل عند يقظتهم لاحقًا. وهذا كان له أثر على باقي الأعضاء العاملة في الجسم توقفت حركتها وهو مقصود بذاته، ثمَّ اختيار مكان الكهف وموقعه اختيار موفّق بعيد عن الضوضاء ومرور الناس وضجيجهم، فهو مكان خلوة ودليل أمان واطمئنان وهدوء وسكون، فقد تولاه الله جل في علاه.

وكأني بأصحاب الكهف وقد استعدوا وغشيتهم سنة من النوم وانتهت وسيلة الاتصال مع العالم الخارجي ولم يبقَ لهم اتصال إلّا مع الله.

كيف يا ترى وقد التحفوا السماء وافترشوا الأرض متقاربين أو متباعدين وغطوا في نوم عميق وزادتهم القدرة الإلهية منع نفوذ الأصوات إلى مسامعهم فالنائم يخلد في نوم هادي وسكون مريح عندما لا تزعجه الاصوات، وسرعان ما يسمع صوتًا ينتبه إليه، فأي غطاء هذا مع أنّنا نعلم علم اليقين لم يكن الكهف مؤثّثًا أو فيه وسائل الراحة، فقد تولى أمرهم الله وهو يتولى الصالحين.

أصحاب الكهف وضعهم على خلاف ذلك كليًا، أوقف الله سمعهم جميعًا دون استثناء لحكمة أرادها الله وهذا دليل معونته لمن أحبه الله ورعاه؛ يدفع عنه كل ما يهمه أو يزعجه ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي...﴾ طه: 39، فهذا هو الغطاء الذي لا يساويه أي شيء من أشياء الدنيا هو من محبة الله لهم ولكل المؤمنين بالله.

إذًا هذه أول رحمة أحاطت بهم حتى لا يعرفوا خارج محيطهم شيئًا أو يُعرف عنهم شيئا، عزل كامل ووقف لحركة حياتهم وأعمالهم وذهابهم وإيابهم، وعاشوا حياة خاصة تختلف عن أيّة حياة كانت

دون طعام أو شراب أو علاج أو خراج أو حديث أي حياة هذه؟ كل ذلك دليل قدرة الله على كل شيء، فالمؤمن يزداد إيمانًا بسماع قصتهم، والكافر يزداد بعدًا وحرمانًا، وهكذا حياة الكافر كل الدلائل تقرع سمعه وبصره وعقله ولا يأخذ لنفسه الحذر ويعيش في إسراف وبطر ويحيط به الخطر وهكذا كثير من البشر قلبه أقسى من الحجر. لا نبتعد عن أصحاب الكهف وقصتهم التي لا يستوعبها ولا يصدق بها إلّا من آمن بالله ربًّا ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾.

هذه هي الحالة والهيئة والمنع للداخل والخارج عليهم، حراسة مشددة ويقظة تامة ومنع ولافتة ظاهرة للعيان وتحذير شديد اللهجة –المنطقة أي الكهف ومن فيه منطقة محظورة محذورة يمنع الاقتراب من المكان– ويمنع أيًّا كان إنسانًا أو حيوانًا والمنع مستمر بإذن الله ليلًا ونهارًا ولا أحد يجرؤ أن يؤذيهم أو يروّعهم أو يزعجهم أو يوقظهم أو حتى مجرد أن يطلع عليهم اطلاعًا؛ كل ذلك بعناية الله ولطفه وحنانه دون تلف لأجسادهم أو خروج رائحة من أبدانهم ومع ذلك بقوا ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ سنوات وسنوات كثيرة ومرت أجيال وأمم سادت وبادت وهم في كهفهم آمنون.

وسيخبرك القرآن بالتفصيل عن عناية رب العالمين بهم، وبالحساب الدقيق بعدد الأيام والسنين؛ لتكون قصة أصحاب الكهف فيها ما فيها من حكم وعبر وإظهار لقدرة الله وعظمته، وروعة التصوير والرعاية والتقدير لا يدركها كل إنسان إلّا من آمن بالله الرحمن الرحيم، فهذه هي روعة القصص القرآني الجميل.

ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ

تدخل مرحلة جديدة لإعادة أصحاب الكهف لما كانوا عليه، وبهذا تتجلى قدرة الله وعظمته التي لا يشاركه فيها أحد ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ أهم ما في القصة أنّ الله بعثهم لكي يثبت للإنسان أنّه هو القادر على البعث بعد الموت، وهذه من فوائد القصة وتنبيه للبشر كافة ليأخذ كل إنسان في كل مكان العبرة لنفسه قبل موته.

إذًا أصحاب الكهف سلَّموا أمرهم لله، فكل ما يتم الآن معالجته فيما يخص حياتهم هو منسوب لفعل الله وإرادته فلا تستغرب في ذلك لأنّ الفاعل هو الله، إذًا ها هم قد بُعثوا بعد مرور سنين طويلة كما سيبعث الله الخلق بعد الموت، فهي صورة تقريبية للأفهام والأذهان، فالبعث معجزة بحد ذاته؛ فهو فناء ثمَّ إعادة ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ طبعًا لا، إذًا خذ الحذر لنفسك قبل فوات الأوان.

ومع كل هذا الاهتمام لم يخبرنا القرآن ما فعل قومهم وأهل قريتهم وأهليهم معهم في فترة ترك مدينتهم أو هجرانها، هل بحثوا عنهم؟؟؟ لا أحد يعرف، وقد ترك القرآن هذه المسافة الطويلة من باب التشويق وخيال الإنسان وتوقعاته، من أجل المتابعة والبيان.

ثمَّ ينقلنا القرآن فورًا ليضعنا وجهًا لوجه ويفاجئنا مع بعثهم وإرسالهم ويقظتهم بعد نومتهم تلك، وليس موتتهم الأخيرة، ومع هذا ترك لنا القرآن فراغًا آخر عن حياتهم في الكهف ولم يتحدث عنه إلّا القليل، فكيف مضت ومرت تلك السنين، وقد يتساءل الإنسان لما لم تكن تلك الموتة بضع سنين وبذلك يتحقق المراد إن كان الإعجاز المقصود، فهذا مرده علم الله العزيز الحكيم.

وسؤال يطرح نفسه: إن كان المقصود العبرة لمن عاش في وقتهم من أهلهم لِمَا كانت هذه الموتة الطويلة؟ أو على أقل تقدير بعد ذهاب هؤلاء الكفرة، فالجواب أحسبه أنّ في اختفاء هؤلاء الفتية عن الأنظار عبرة في حد ذاته بالنسبة لنا أجمعين، وطرح هذه التساؤلات ليست ترفًا فكريًّا وإنّما بحث وغوص في قصة هؤلاء الفتية من أجل العبرة والاتعاظ، وكما أنّ هذا النوم غير المعهود هو موعظة للأحياء إلى يومنا هذا، حتى يردِّده البعض "تنام نومة أصحاب الكهف" حينما تنزعج منه. ويستمر الإعجاز في كلمة بعثناهم، فالذي بعثهم هو الله لا أحد سواه.

فهذا النوم أصلًا معجزة بذاته وحاجة مطلوبة للجسم، وهو حماية وكرامة وخيمة عليهم في كهفهم وأمان لهم ونعمة من الله، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ اختيار النوم راحة لهم...

ودفعًا للقوم الكافرين عنهم أعمى الله أبصارهم وجعل عليها غشاوة أن يدركوهم أو يلحقوا بهم مع قربهم منهم في كهفهم الذي هو على مرمى البصر.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ على التراخي بعثهم الله جل في علاه، فقد كانوا في عداد الموتى، ومكثوا في رقاد كل هذه المدة في الكهف وهي لفتة كريمة ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ بلى قادر، وهذا أكبر دليل على البعث. وقصة أصحاب الكهف برهان لكل إنسان ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾. وأنتم أيّها الجاحدون المنكرون ستبعثون يوم القيامة مثل بعث أصحاب الكهف، فهذه القصة للبشرية عامة فيها تحذير ودليل البعث بعد الموت من أجل الاختبار والامتحان والجزاء للإنسان أيًّا كان.

في زمن مكثهم هذا في كهفهم وبعثهم وقع الناس في حيرة بين مستغرب ومصدق، فتباينت المواقف والآراء وانقسموا إلى حزبين، وهذا ما يجري في أي أمر غير معلوم تكثر فيه الاجتهادات

والتوقعات حتى أصحاب الكهف أنفسهم عندما بعثوا للحياة مرة أخرى تساءلوا فيما بينهم واختلفوا في مدة مكثهم في الكهف ولم يتفقوا عليها، وهذا دليل ضعف قدرة الإنسان! قال الله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ الطلاق: 12.

فالتساؤل ورد لأنّ ملامحهم يبدو أنّها لم تتغير؛ فهُم كما ناموا قاموا فلم يتوقعوا غيبة ونومة طويلة كهذه مما دعا أحدهم يسأل مستغربًا ومتعجبًا.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ: كَمْ لَبِثْتُمْ؟؟؟

قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾

ما عندهم خبر كم لبثوا، فالوقت مرَّ سريعًا عليهم، وجاء جوابهم يومًا أو بعض يوم في أكثر تقدير. وهذا بالنسبة لنوم الإنسان العادي، فالفترة الزمنية هذه لا يحيط بعلمها أحد سوى الله بداية ونهاية، فقد ماتت أجيال وتناقلت أخبار، فعمر الإنسان لا يستوعب ثلاثمائة عام وأكثر، اعترف أيّها الإنسان بضعفك وقدراتك المحدودة التي هي أصلًا وهبها الله لك، فلا تتعالى على الله.

لقد علم الله جل في علاه أنّ الحزبين كلاهما لا يعلم ولا يحصي أمرًا تولاه الله، قال الله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾، انظر كلمة "أمدًا" تصور مدة طويلة ممتدة في نظر الإنسان العادي، إذًا كلاهما وقف عاجزًا عن تحديد أمد المدة، إذًا لا تسأل أحدًا عن قصتهم إلا الله منزل القرآن الكريم على رسوله الأمين محمد عليه الصلاة والتسليم.

❁❁❁

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ

بعد طرح القصة وما فيها من دلائل قدرة الله وقبل استكمالها، نجد أنّ القصة ليست كالقصص المعهودة لدى البشر؛ فالأحداث تتسابق فقد تأتي قبل موعدها إلّا أنّه في النهاية تكتمل الصورة كوحدة واحدة في مخيلتك، فقد جاء كلام مفرح ومبهج بأنّ الله هو الذي تفضل بكرمه ولطفه وعظم شأنه أن تولى مهمة قصة أصحاب الكهف وأنزلها في قرآن يتلى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليثبت بها فؤاده وتكون لأمته من بعده عبرة وموعظة خاصة عنصر الشباب بالذات، وكيف يرعاهم الله ويحفظهم إن هم آمنوا زادهم من لدنه هدى وثبات ورحمة.

فالأمة بشبابها ومستقبل أجيالها وقوة سواعدهم المؤمنة المخلصة لعقيدتها ودينها وحقوقها ورفعتها وعزتها وقدرتها ومكانتها وبذلك تكون في مقدمة الأمم وقيادتها.

وليس من نافلة القول أن يترك القرآن مجالًا لأحد بنقل هذا الحدث العظيم الباقي أثره ليوم الدين لأهميته، مما يدل على شأن سورة الكهف وأصحابها التي شيعها سبعون ألف ملك عند نزولها لما فيها من الآيات الكريمة، قال الحق جل جلاله: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم

بِالْحَقِّ...﴾ والله إنّه لأمر عظيم إنّ الذي سيقص القصة منزل القرآن الكريم الله بعظمته وكبريائه.

فأول حاجة لفت لها المولى الأذهان أنّهم فتية وليس كأي فتية وإنّما آمنوا بالله وزادهم هدى، هذا هو المطلوب من شباب الأمة والأجيال الآتية وإلّا يكون الضياع والشتات والفرقة؛ فالشباب عصب الأمة.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ...﴾ هذه بِدَايَاتها فتية أقوياء بإيمانها بربّهم، فما بنا لا نفتخر بإيماننا وعقيدتنا وإسلامنا وديننا ونظهر ذلك في إقامتنا وترحالنا ومعاملاتنا وروابطنا مع أنفسنا ومع الآخرين، ألم يعلمنا ذلك ديننا!

﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ جملة مفيدة لم تكن في الحسبان لو لم تأتِ بالقرآن، وتثبيتًا لهم زادهم الله إيمانًا مع إيمانهم. ما شاء الله هذا ما نطمع ونطمح له أن يزدنا الله إيمانًا مع إيماننا ويثبّته لنا.

أي عظمة وهيبة وإجلال وإكرام لهؤلاء الذين أفرد لهم القرآن مساحة في سورة سماها باسمهم ووقفًا عليهم! تصور لو اختصر القرآن الكريم أنّهم آمنوا بربّهم على العموم دون ذكر "فتية" لا تجد زخمًا في التعبير، إلا أنّ التركيز على فئة الشباب بالذات ولبنة

الأساس المتين والإحاطة برعايتهم وحفظهم وتوجيههم نحو الخير والعطاء وقوة الاندفاع والنشاط والحيوية والتركيز عليهم هذا هو الهدف المطلوب المرغوب من أصحاب العقول.

الآن كل مراكز الدراسات تستهدف الشباب، فإذا أردت أن تقضي على أمة أهلك شبابها بالفساد والضياع والمخدرات وإشغالهم بسفاسف الأمور وضعف التعليم وأغرقهم بالكماليات والرفاهيات والترف الزائف والأشياء الكثيرة التي لا يحيط بها مجال؛ كل ذلك من أجل أضعاف الإيمان والعقيدة في نفوس الشباب، فالشباب بدون مبدأ لا شيء، على خلاف فتية الكهف آمنوا بربّهم وزدناهم هدى وهذا الاستطراد عفوي لِما نجد ونحاذر منه.

اعلم ايها القارئ أنّ القصص القرآني حق لا تشوبه شائبة ولا يخالطه شك أو ظن أو هوى نفس ولا مداراة فيه ولا مداهنة إنّما حكمة بالغة وتفكير عميق.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يكفي هذه... هل يوجد أعظم من كلمة "نحن" جاءت بلفظ العظمة وليس بالإفراد! ففيها ما فيها من القدرات الإلهية مجتمعة، منها: قوة الإعادة من العدم، والعلم الذي لا يعلمه سواه، والهداية.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ...﴾ ما ذكرت قصص الأمم السابقة إلّا للاسْتِفادَة منها، ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ...﴾ والذي يعلمك إياها هو الله جل جلاله.

انهم فتية اهل الكهف نقل نبأ خبرهم وعلمهم الله من أجلكم لتزدادوا إيمانًا مع إيمانكم مثلهم ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ واستخلصهم الله لنفسه، فشهد لهم الحق بالحق جل جلاله وكِبْرِياؤه، وهو العليم بحالهم ومآلهم: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وكفى بالله شهيدًا فهو أعلم بإيمان هؤلاء الفتية، وقد أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك، فهم أهل قدوة واقتداء وصلاح لكم ولشبابكم.

ولم تمنعهم قوة شبابهم من اتباع الحق وهذا يشجع ويشحذ همم الشباب في كل زمان ومكان بطاعة الرحمن بمثل هؤلاء الشبان، وهي إشادة ومندوحة ومكرمة سطرها القرآن في تربية الأولاد ونشأتهم أرادها لهم ربّ الأرباب تربية وأخلاق.

ثمَّ تتابُع الرحمات على هؤلاء الفتية وأمثالهم ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، ما أحلى هذه الزيادة من ربٍّ كريم عليم حكيم يضع الأمور في موضعها بكل تدبير، فالزيادة هداية تجيء على ما يماثلها وهو الإيمان، فالإيمان هو الطريق الوحيد المستقيم وغيره معوج وملتو، إذًا عن

الاستقامة لا تحيد ولك من الله المزيد إيمانًا وتوفيقًا، فأنت لا تحتاج سوى هداية ربّ العالمين، وكانت الآيات كلها تشع نورًا يتزاور لهم وعليهم ذات اليمين وذات الشمال خصهم به ربّ العالمين وبه يخص كل من آمن بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا ورسولًا.

فقل الحمد لله أولا وأخيرًا على نعمة الإسلام والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ومنقذ البشرية من وحل الشرك إلى التوحيد.

وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

تعبير قرآني كريم ﴿وضربنا على آذانهم﴾، ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ربط مخصوص من الله تعالى بالذات وتسلسل للآيات وتناسق وتناغم مع بعضها البعض يثير الانتباه ويحرك الإحساس لما جاء في الآيات. وقد ختمت الآية السابقة ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ آمنوا بربّهم ومقابل هذا الإيمان زادهم الله هدى، ثمَّ جاء من الله ربط محكم على ما في القلوب من إيمان بربّهم وهدى وتثبيت ذلك ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، والربط المعروف أنّ الذي يُربط هو السِّقاء ويشدّ حتى لا يسيل ماؤه، فالآية صورت قلب مملوء بالإيمان وزيادة عليه ختم عليه بهداية من الرحمن لهم ولم يبقَ في القلب مكان إلّا لله ومن الله ومع الله، وهذا الأمر يحتاج للربط عليه والتمكين، والمثبِّت لهذا كله هو الله ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ انظر كلمة "ربطنا" نحن بعظمته سبحانه وتعالى.

إذًا هذه فرائد وفوائد قصة أصحاب الكهف تثبيت فؤاد النبي وأتباعه، فقد كان صلى الله عليه وسلم يقول: "يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك"، فالذي يثبت رباط القلب وما فيه الذي خلقه وصوره، وفي الحديث: "أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ

صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ" رواه البخاري، إذًا بَعدَ هذا الربط والتثبيت والعون من الله فلن يغادر الإيمان والهداية ذلك القلب؛ فقد تأكد بقاء الإيمان والهداية فيه بفضل الله.

فيا ترى كيف يكون هذا الربط الذي لا تدركه العقول ويأتي على القلوب؟!

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ الحج: 32، تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب وليس من تفكير العقول، وهكذا الإيمان والهداية وربطهما.

ثمَّ تتابع الآية بشرح دقيق على ما يترتب على كمال الإيمان والهداية وربطه وثمرته وناتجه:

﴿إِذْ قَامُوا...﴾ بكل ثقة وتمكين وثبات ويقين وقلب يفيض إيمانًا وهداية دون أن يترددوا أو يهابوا أو يخشوا من أحد، وأعلنوا إيمانهم وهدايتهم: ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، هذا هو التوحيد ونتيجة الربط دون خوف أو لائمة أو مهابة من أحد.

اقرأ إن شئت في سورة طه من الآية 69 إلى76: ﴿...قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾.

ودون موارية أو مهادنة نادوا في الوسط الاجتماعي الذي يعيشون فيه: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ ربّ الكون كله فلا نعبد أحدًا سواه، وهذا هو أثر الإيمان ودليل الهداية نفي الشرك وإثبات الوحدانية لله.

فحركتهم كلها ارتبطت بأمر الله، فما في القلب يظهر على الجوارح كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم: "فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ"، وبذلك أصبح كل واحد منهم عبدًا ربانيًّا تحفه عناية الله وتحركه، إذ قام أو قعد أو نطق أو تكلم، فهم "يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ"؛ لأنّ الإيمان والهداية تفيض من قلوبهم. وهكذا كان أصحاب الكهف في قيامهم وذهابهم وإيابهم وحالهم ومآلهم يردد باللَّهِ وَوَاللَّهِ وَتَاللَّهِ "لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا" وإلّا نكون "لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا

شَطَطًا"، كيف ذلك والله قد ربط الإيمان وختم لهم بخاتم الهداية على ما في قلوبهم ولم يعد لهم إلّا أن يرددوا الله خالقنا وخالق ما هو أعظم منا قائلين: "لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ".

إذًا انتهى عهد وحقبة الشرك والكفر عند أصحاب الكهف إلى غير رجعة ومفارقتهم له مفارقة أبدية، وهكذا كان أصحاب رسول الله عندما آمنوا وازدادوا هدى، وسقط من حسابهم كل الآلهة، إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد.

وإن يصدر هذا الشطط والتفريط منا يكون ظُلْمًا وجَوْرًا وتجاوزًا على الحق، وهذا لن ولن يحصل لأنّه يُعد خروجًا عن الصواب والطريق المستقيم الذي سلكناه بهداية الله ولن يتصور حصوله منا البتة، والله على ما نقول شهيد، والإيمان والهداية لنا طريق والشرك عنا بعيد، وقلوبنا لم تعد تستقبل إلّا الإيمان والهداية وتنجذب إليهما ولا يستوعب القلب سواهما بسبب ربط الرحمن عليهما، وبذلك لن يغادر الإيمان قلوبهم مطلقًا ولا يتصور مغادرته. وهذا دليل لهذه الأمة أنّ الإيمان ما هو إلّا الهداية والتوفيق من الله.

قال الله تعالى:- ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام: 153.

هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً

آيات قرآنية ناطقة بإيمان أصحاب الكهف ونفي الشرك عن الله، ففي الآية السابقة قالوا: نحن ﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ هذه أول مفارقة وإقرار بالإيمان لله، فقد نفوا الشرك عن أنفسهم ونجاهم إيمانهم بالله منه، ثم قالوا نحن نبرأ إلى الله من قومنا الذين اتخذوا آلهة من دون الله، ونقر ونعترف أنّ ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ بإرادتهم واختيارهم فحالهم كحال سائل يسأل من فعل هذا؟ فيأتي الجواب فعله فلان، فالفتية قالوا: نحن لا علاقة لنا بشرك وكفر قومنا، فهؤلاء القوم سفهاء العقول ليس لهم أي دليل إلا المعاندة والمكابرة أمّا نحن دليلنا واضح وصرّحنا به على الملأ: ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾، ثمَّ أكّدوا التوحيد مرة أخرى فقالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ وإلّا نكون: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ الشطط الخروج عن الحق إلى الباطل وهذا لن يحصل منا على أي وجه كان؟

أمّا قومهم فهم أهل شرك وأشاروا إليهم وتنصلوا من كفرهم، قال الله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾، ودليل شركهم تعدد

آلهتهم ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فهؤلاء لم يأتوا بدليل يقنع أنفسهم باتخاذهم عبادة الأوثان والأصنام.

﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ فأي دليل واضح وبرهان وحجة تسعفهم على باطلهم طبعًا لا يوجد، وبهذا الشرك ظلموا أنفسهم.

﴿...قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، ومع هذا أصروا وافتروا على الله بشركهم.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، منتهى الافتراء على الله، وبعد هذا كله يأتي الجواب والعتاب: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، لا أحد أظلم لنفسه من هؤلاء المفترين الكذبة الجاحدين المنكرين لوحدانية الله، فالشرك افتراء واختلاق وظلم واختراق للفطرة السليمة وخروجا عليها.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الروم: 30.

وهذا دليل مفارقة وبراء ما بين المؤمن وبين من اتخذ من دون الله آلهة".

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ

الآن أتت مرحلة الاعتزال بعد أن تمكّن الإيمان والهداية في القلوب وأصبح يعتمد على أصحابها جاء دور الافتراق والابتعاد والاعتزال، فقد أصبح الإيمان واضحًا مشرقًا ساطعًا عليه هالة من الهداية والتثبيت والربط، إذًا لا بدّ أن يعتزل أصحاب الإيمان الكفر وأهله إذ لا فائدة ترتجى منهم والخلاص أفضل وسيلة منهم ولا يوجد نقطة لقاء بين الإيمان والكفر، فإن كان أولادهم قد آمنوا وهم فتية فلِما لا يؤمن كُبَرَاؤهم وهم أهل خبرة ومعرفة؟ فالسبب إصرارهم على المخالفة وملاحقة هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم، حتى وإن كانوا من ذريتهم فالصراع أبدي ما بين الحق والباطل قائم من بداية الخليقة، عندئذٍ الواجب على المؤمن "اعْتَزَلْتُمُوهُمْ" فالاعتزال وسيلة من وسائل البعد يستلزم الترك والهجران إلى موضع الأمان، ودعوة إلى عدم مخالطة المشركين أو الأنس بهم أو معاشرتهم لما في ذلك من تأثير في عقيدة المسلم، دون حسن معاملتهم فيما خلاف ذلك.

قال الله تعالى في آية أخرى:

﴿إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا...﴾ ممنوع على المؤمن مجرد السمع للكفر بآيات الله.

﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا...﴾ وممنوع عليك كمؤمن مجاراة المستهزئين بآيات الله.

﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ...﴾ حتى المجالسة والقعود معهم بأي وجه من الوجوه ممنوع.

﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ...﴾ إذًا اعتزلهم حتى يتركوا الكفر والاستهزاء.

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ...﴾ وإن تساهلتم أو تغاضيتم عنهم تكونوا مثلهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ هذه هي النتيجة الحتمية.

وهذه أشدّ وقعًا مما سبقها؛ فهي وصف الجالسين والمخالطين والمحبين للكافرين ودليل رضاهم عما سمعوا من استهزاء وخوض في آيات الله فهم منافقون حقًّا واشتركوا والكافرين إثمًا وجمعهم ربهم في جهنم جمعًا.

فالمفارقة براء وتميّز وعزة للمؤمنين، وذلة وصغار للكافرين، حتى يشعر هؤلاء الكفرة أنّ هذا الاعتزال عنهم ليس من أجل دنيا وإنّما لشركهم بالله، فالدنيا لنا ولهم على حد سواء وهي موضع اختبار

وتمحيص ومعرفة الصالح من أتباع إبليس. ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ والفارق بيننا وبينهم هو عبادتنا لله وحده لا شريك له.

وطالما قومكم أصروا على الشرك والإيذاء فاعتزلوهم واتركوهم وحالهم نحن نتولاهم بالعذاب، أمّا أنتم فادخلوا في كنف الله وحمايته رافقتكم السلامة والرحمة "فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ" وحتى الاعتزال منكم عنهم لكم به بشرى ونجاة، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا، وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا...﴾ مريم: 49.

بعد هذا الاعتزال يأتي اختيار مكان الكهف بتوفيق وهداية ودليل من الله، ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ...﴾ فالمأوى هو المكان الذي يلجأ إليه الإنسان ويُؤْوَى إليه كالْمَسْكَن مثلًا، إلّا أنّ الهارب أو الخائف أو المطارد يبحث عن أي مكان يحميه ويأوي إليه، وبذلك أمروا بعد الاعتزال والترك أن يعبدوا الله وحده ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ ومع هذا ما وجدوا منهم إلّا الإصرار على الشرك، فأمروا بالخروج نحو الكهف من أجل تنفيذ أمر الله، ثمَّ جاءت أكبر بشارة وهي الرحمة التي حلت وعمت وغطت كامل المكان من جميع

الأركان على من فيه، قال الله تعالى: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ هذا الانتشار للرحمة لا يعلمه إلّا الرحمن فالرحمة كقطرات الندى وبساط ترحيب لهم نحو كهفهم وطريق آمن لا عقبات ولا صعوبات فيه، فكل كلمة موجهة لهؤلاء الفتية فيها رحمة لهم بالذات خاصة بهم دون غيرهم، ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم...﴾ نشر للرحمة من ربّكم خاص لكل مؤمن صادق مع الله.

فالربّ هو الذي سيتولى تربية هؤلاء الفتية وتحت عنايته وإشرافه وتسخير الكون لهم كل ذلك ﴿مِّن رَّحْمَتِهِ...﴾ مع أنّ لهم رحمات كثيرة سيتولاهم بها لاحقًا.

﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم...﴾ لكم المكان والرعاية والحفظ والحفاوة والتكريم بحياة خاصة مختارة منه عز وجل. انظر كم مرة كررت كلمة "لكم"، أربع مرات كلها دليل العناية من الله اهتماما زائدا بسبب إيمانهم، كم لأصحاب الإيمان من مزية ورمزية وكرامة ورحمة من الله كثير، ما عليك إلّا أن تقول الحمد لله ربّ العالمين على نعمه التي لا تحصى ولا تعد.

❁❁❁

بين آيتين

" ...وَهَيِّئْ لَنَا ... وَيُهَيِّئْ لَكُم..."

طلب... وجواب

طلب هؤلاء الفتية من الله "وهيئ لنا..."

وكانت الإجابة من الله لهم اطمئنوا "ويهيئ لكم"

إذًا من أولويات التهيئة والتهوية للكهف الخالي من أبسط مقومات الحياة التي يحتاجها الإنسان ترك ذلك لأمر لله لتهيئته على الكيفية التي يريدها الله، وأمر آخر لا يقدر عليه إلا الله ولا يعلمه إلّا هو، وهو نشر رحمته على أصحاب الكهف، كيف يكون ذلك لا أحد يعلم! وكل ما يلزمهم ويحتاجونه مهيأ لهم سلفًا.

فالآية الأولى طلب من الله: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، طلب ودعاء المضطر الموجه لله بالذات من أصحاب الكهف أن يهيئ الله لهم من أمرهم رشدًا، وهذا منتهى التوكل والإيمان على الرحمن الرحيم بهم أن يرشدهم طريق الهدى والسّداد بسبب فرارهم بدينهم.

والآية الثانية: جاءت وفقًا لدعائهم نجاة لهم، وعَطفًا عَلَيْهِم، ولهذا سهل لهم أمر حياتهم فيما يحتاجونه.

فهذا التوافق في الآيات وحسن العبارات دليل على حسن الحياة التي هيئت لهم من الله العزيز الحكيم: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾، وأصل المِرْفَق ما ينتفع به من طعام وشراب ومأوى، إذًا فهم في ضيافة الله على الكيفية التي أرادها لهم الله، وهو معهم ولهم ولن يضيعهم وتحيط بهم الرأفة والرفق والرقة والشفقة من الله ويصون لهم ربهم المكان ويحفظ لهم الأبدان رعاية بهم وحنان، وحماهم الله في نومهم بسور من الرهبة والهيبة حتى لا يقربهم إنسان أو حيوان أو مما خلق من هوام، فكل شيء هيئ لهما بتدبير الله وأمره.

ثمَّ أطبقت عليهم الرحمة ونشرت عليهم وغطت وأحاطت بهم من كل مكان بأمر من عند الله، واستثني المشركون من الرحمة وهم الأقرب للمكان إلّا أنّهم ليسوا أهلًا لرحمة الرحمن ولا أجر لهم ولا ثواب.

وهنالك قصص مماثلة من حياة الأنبياء:

قصة نبي الله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا...﴾ أي خرج نبي الله موسى من موطنه في مصر.

﴿يَتَرَقَّبُ...﴾ يلتفت ذات اليمين وذات الشمال وهذه هي حالة الخائف المضطرب.

﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ...﴾ نفس دعاء الفتية.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ...﴾ توجه إلى الظل ثمَّ آوى إلى مضارب مدين.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ طلب ورجاء الهداية من الله، والنتيجة جاءت وفق الطلب خير وبركة على موسى وفتحت عليه أبواب الخير كطلب أهل الكهف.

وما دار ما بين شعيب وموسى ذكره القرآن –: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ...﴾ مصاهرة كريمة بين نبيين.

﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ...﴾ هيأ الله لموسى بعد الزواج الميمون عمل حتى لا يكون عالة يتكفف الناس، هذا الشرف ناله بتوفيق الله.

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ...﴾ هذا الشرط في العقد بالزيادة يعود لإرادة موسى وكرمه.

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ...﴾

يا سلام كيف هي أخلاق الأنبياء العقد واضح والتكريم حاصل من شعيب فهو قدم كريمته لكريم، فهذا منتهى التيسير والتخفيف والتقريب، يا ليت المسلمين يأخذوا بهذه الصفات دون مشقة في تزويج بناتهم إلا للكرماء!

﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ القصص: 27، قال شعيب اطمئن يا موسى وربط ذلك بمشيئة الله والصلاح ولن تجد مني إلّا كل خير، جواب طيب ووعد حسن ومعاملة حسنة وإن شاء أكون معك من الصالحين، هذه هي تعاليم أهل الدين المرسلين من ربّ العالمين.

قصة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مشابهة قصة هؤلاء الفتية: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ...﴾.

إذًا النبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن بحاجة لنصرتكم مطلقًا لأنّ الهجرة بأمر الله، وهم من طاردوه فكيف ينصرونه؟ إذًا كن مطمئنًّا أنّ النصر للمؤمن من الله ولا يتأتى من الكفرة.

﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ...﴾ تأكيد مع تحقق أنّ الذي نصره هو الله في هجرته للمدينة المنورة حافظًا ومعينًا له، ألم يقل المولى عز وجل:

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾، وهذا دَيْدَن الكافرين الإخراج والإيذاء للمؤمنين مثل أهل الكهف.

﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ...﴾ إشارة لطيفة في ذكر أبي بكر وخروجه في معية الرسول.

﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ...﴾ هنالك كهف، وهنا غار نفس الأمكنة وإن تغيرت التسمية.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ...﴾ ثق بالله يا أبا بكر لن ينالك ما يَسُوؤكَ.

﴿لَا تَحْزَنْ...﴾ ومن ثقة الرسول بالله بدأ يخفف عن أبي بكر الذي كان حريصًا على حياة الرسول أكثر من حياته، إذًا "لا تحزن".

قال –الرسول–: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا...﴾ ومن كان في معية الله لا يحزن ولا يخاف ولا يحسب لأي شيء حسابًا.

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ...﴾ ففي الكهف نُشرت الرحمة على الفتية، وهنا نزلت السكينة على الرسول وصاحبه، فالسَّكِينَةُ هي الطَّمَأْنينةُ والاستقرار ولا يكون إلّا من الله بتثبيت القلوب.

﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا...﴾ أيّد رسوله الكريم بجنود لا يعلمها إلا هو، أمّا في الكهف فقد تمّ تسخير آيات كونية كالشمس تزاور عن

كهفهم وتقرضهم فيه. فعلًا دقة القرآن وإعجازه في ألفاظه وترتيبها...

وَتَرَى الشَّمْسَ

الآن بدأ الحديث عن الآيات الكونية وقدرة الله المهيمن عليها، والحديث بدأ عن الكهف وأصحابه وكيف سخرت الشمس لهم مع أنّه مجرد رؤية الشمس في طلوعها وإشراقها بأمِّ عينيك بداية إعجاز لكل البشر فمن منا لم يرَ ويحس ويشعر بطلوعها وغروبها يوميًا حتى لم يعد يلتفت الإنسان لقوة هذا الإعجاز الكوني المتكرر "لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ غافر: 57.

إلّا أنّ المسألة ليست في هذا وإنّما في تسخير هذه الآيات الكونية ووضعها على عظم جُرمها في خدمة أصحاب الكهف لكرامتهم عند الله وإيمانهم به، وهذا التسخير يظهر قيمة أهل الإيمان خاصة في كل زمان ومكان.

فأصحاب الكهف ذللت لهم الشمس ولا أحد ينكر ذلك لأنّ المتحدث هو الله جل جلاله فهؤلاء يأخذون قسطًا كافيًا من أشعة الشمس يستفيدون منها كالأحياء دون أذية بالقدر الذي قدره الله لهم، فهم في حالة سكون ورقود مؤقت، والدليل القرآن: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أعادهم الله للحياة بعد أمد من الزمان.

فمن منا لا يرى الشمس إذا طلعت؟؟؟ الكل يرى ذلك، ولكن ما يتبع الرؤية من دورانها، فانظر كلمة "تَـزَاوَرُ" تتنحى عنهم كي لا تؤذيهم، كلما علت نحو كبد السماء، فكلمة تزاور اختيرت لمرة واحدة لتأدية الدور الفريد للشمس في حركتها فهي مأمورة للجهة المعينة بالذات، وبزاوية محددة لا تتعداها من جهة اليمين، فهذه الأشعة المرسلة بدرجة ميلان مقدرة نحو أجسادهم بطريقة غير مؤذية لهم يوميًا صيفًا وشتاءً دون نسيان أو خلل كل هذه المدة الطويلة ما هو إلّا دليل قدرة الله المسير للكون بدقة متناهية وهذا لا يستوعبه فكر إنسان بهذه الدقة العلمية الموصوفة إلّا العلماء ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ آل عمران: 7.

ويوضح لنا ذلك الإعجاز كيف تتم حمايتهم ورعايتهم من البِلى دون أن تأكل الأرض أجسادهم ولا رائحة كريهة تنبعث منهم ولا جَيّفُوا رغمًا من عدم الأكل أو الشراب، فالكون كله تحرك والتزم بما ألزمه الله به من خدمة هؤلاء الفتية، عندما أخلصوا لله. وتوجيه آخر خدماتي لهم من الكون خصوصية خاصة بهم دون غيرهم، فكأنّ الشمس تطلع وتغيب عنهم حسب حاجتهم ﴿وَإِذَا غَرَبَت

تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾، وكلمة "تَقْرِضُهُمْ" استعيرت لمرة واحد لهذا المكان لتقوم بواجبها من جهة اليسار ثمَّ غربت الكلمة بغروب الشمس.

فكلمتا "تَزَاوَرُ" و "تقرضهم" اختلفتا معنًا ولفظًا ودورانا مع أنّ المصدر واحد وهو الشمس!!! كل ذلك اشارة من ذي القوة المتين أنّ تلك الآيات وحركتها بيده واختياره ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ﴾ كل هذا الذي أشير إليه آية من آيات الله.

فالتزاور مرافق لحركة تنحي شروق الشمس وانبعاث طاقتها وحرارتها وضيائها وأشعتها وميلانها وزوالها عن كبد السماء هذا دور مقدر من الله لهم في خدمتهم.

وتأتي حالة أخرى عكسية من نفس الشمس بالترك لهم بميل آخر غير الطلوع "وتقرضهم" وهو وقت دخول الظل، وتبدأ الحرارة بالانْخِفاض وأشعة الشمس تلامس سطح الأرض، ولكلٍّ دوره ووظيفته يؤديه نحو أصحاب الكهف ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

كل ذلك الآيات الكونية تتحرك بإرادة الله على عظمها، ويسوقها الله ليتفكر الإنسان فيما خلق له الرحمن وسخره لخدمته على مر

الزمان، فحركة الإحياء تتوافق مع حركة دوران الكون وحركة أهل الكهف بإرادة الله.

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ الجاثية: 6.

وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ

آيات ذات دلالات وبينات مختلفات لخدمة أناس مخصصين هم أصحاب الكهف لمسمى واحد وهي الشمس، اختيار موفق يثير الانْتِباه لكلمات عربية غير دارجة على الألسن، وهي كلها للشمس نفسها التي تتنحى "تَّزَاوَرُ"، "تَّقْرِضُهُمْ" أي تتركهم إعجازًا لا مثيل له لغويًا ومعنويًا وجزالة في الألفاظ يتفق والإعجاز القرآني، قالوا تزاور تميل وتتنحى، وتقرضهم تتركهم مع أنّ المعنى أوسع من هذا بكثير أدركنا منه الشيء القليل وبقي منه الكثير ﴿تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾.

ثمَّ تأتي لنا الآيات تخبرنا بأول صورة لأصحاب الكهف من داخله فهم في فجوة متسعة خاصة بهم، ويفهم من كلمة فجوة أنّ المقصود ليست أجسادهم في مكان مُنْزَوِي من الكهف وإنّما في فجوة مختارة بدقة متناهية تتفق وحركة الشمس طلوعًا وغروبًا في فنائه الواسع، فحرارة أشعة الشمس في الشروق تزاور عنهم وتَقْرِضُهم غروبًا، ففي كلتا الحالتين الشمس لهم بين ميلان وترك بما يحقق لهم الفائدة المرجوة من أشعتها، وكأنّ هذه الفجوة مكان تهوية لهم ففي حال وصول أشعة الشمس للفجوة يَدفَأُ المكان دون أن يتأثر الإنسان –

أصحاب الكهف–، فالذي رتب لهم الشمس وسخرها رتب لهم المكان كي يتسنى دخول أشعتها وظلها.

ومن هنا يأتي سؤال السائل عن "وهم في فجوة منه" ولم يذكر أنّهم في الكهف على إطلاقه؟! أرى أنّ ما ذكرته من تعليل هي مهمة الفجوة وحتى يتفق مكانهم مع حركة دوران الشمس حولهم ويعلم أنّه ترتيب رباني حتى أصحاب الكهف لا علاقة لهم بهذا الترتيب. وكأنّ الآيات القرآنية هي التي تؤدي هذه الحركات والترتيب ودوران الشمس، وحركتها على المركز المطلوب، فهي عبارة عن أداة تصوير متحركة تنتقل بين جنبات الكهف من مكان إلى آخر في فجوة متسعة موزع كبير للنور والشعاع ذات اليمين وذات الشمال. وتبقى الآيات تلتقط صورًا لأصحاب الكهف من داخل كهفهم صورًا حية تبقى عالقة في ذهن القارئ، والمستمع يتابع من خلالها الأحداث متابعة حثيثة حقيقة وواقعية ويراقب مراقبة ذاتية؛ فيرى المشاهد تمر من أمامه تتلاحق كلما تلا التالي الآيات القرآنية، وكأنّه على رأس الحدث ينظر حركة الآيات وهي تسجل وتصور في الكهف والشمس في شروقها وغروبها: مرة "تزَاوَرُ"، ومرة "تقْرِضُهُمْ"، ومرة

"ذَاتَ الْيَمِينِ"، وأخرى "وَإِذَا غَرَبَت"، ثمَّ "ذَاتَ الشِّمَالِ"، "وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ".

راقدون لا حركة وإنّما سكون تام، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ...﴾ كل الذي سمعته سابقًا أو لاحقًا أو حاضرًا هو آية من آيات الله، فلا تمر عليها دون الاستفادة منها، ووراء كل حرف حركة وآية ناطقة تقول لك ابْتعد واحذر طريق الضلال في كل زمان ومكان.

كل ما مر ذكره هو إشارات ودلالات لك على عظم قدرة الله، لا تنسى الإشارة للآيات التي مرت بك ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾. وبعد كل هذه الآيات والحركات الكونية والتسخير ما على الإنسان إلّا أن يأخذ الحيطة لنفسه قبل فوات الأوان، فقد أَعذَرَ من أَنذَرَ وأنصف من حذر...

وجاءت الخاتمة مذيلة بأكبر فارق وعنوان تبين كيف هي حال الفتية الذين آمنوا وغيرهم من الكافرين، وهي صورة باقية ما بقيت الحياة على وجه الأرض. هذا هو العنوان "مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ"، فالله هو الهادي الذي أودع الهداية في قلوبهم وربط عليها، إذًا اترك كل شيء عنك وكن في معية الله، فقصة أصحاب الكهف أمامك أكبر دليل لك وتعليل في الرعاية والروعة والعناية من الله العزيز الحكيم.

وعلى النقيض انظر مصير كل المشركين الكافرين من العصاة المذنبين السابقين واللاحقين في الدنيا وفي الآخرة مع من يكونون وأَيْنَ يكونون ومن مرشدهم ودليلهم، وهذا هو الشق الثاني من العنوان: "وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا".

ابن آدم بعد هذا البيان والآيات لك حق الاختيار، فمصير الإنسان إمّا مهتد أو ضال.

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا

هذه هي الصورة الثانية التي تنقلها لنا الآيات، صورة لهم كلهم دون استثناء عيونهم مفتحة كأنهم في حالة يقظة، وكأنّ عيونهم تنظرك مما يزيد الموقف رهبة تحرك مشاعر الإنسان أن انتبه هذا المشهد خاص بأصحاب الكهف، والحديث عن هذه الحالة غير المألوفة يستدعي الحذر وحب الاطلاع على السبب وأنّ الأمر ليس من ترتيب البشر.

وهذه الصورة تشد انتباه التالي للقرآن وكل إنسان عنده رغبة ملحة لكي يشاهد المنظر على الواقع كما صوره لنا القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾، يا ترى الخطاب لمن موجه؟؟؟

الجواب: الخطاب لكل البشر بغض النظر عن الزمان والمكان، فالقصص القرآني فيه عبرة فمن قَرَأَ القرآن تبين له كيفية بعث الإنسان مِن أوثق مصدر هو القرآن الكريم.

ثم تتفاجأ وتستغرب من الوهلة الأولى من تلك الصورة المجسمة الناطقة عن ملامح أصحابها وكأنّهم أمامك والحديث موجه إليك بالذات، ولم يخطر على بالك أنّهم نيام مع أنّ حالهم ينبئك أنّهم في رقود تام وسكون مطبق دون حراك، كل هذا من خلال حديث

القرآن لك؛ فالمشهد يتكرر مع كل تلاوة لتلك الآيات حتى يومنا هذا دون غياب أو فقدان أو بهتان وكأنّه منزل عليك للتو أيّها القارئ للقرآن. وأول ما يفاجئنا مشهد رؤية عيونهم مفتوحة وهم نائمون، لماذا؟ لحكمة أرادها الله ولَفَتَ إليها القرآن، فهو منظر يثير الدهشة والعجب والتوجس والخوف والتأمل والتفكير، ثمَّ استمرارية انفتاح العين كل هذه المدة الطويلة والمحافظة على عدم جفافها إعجاز بذاته، من منّا لا تطرف عينه مرات وإذا أخلد إلى النوم لا ينام إلّا إذا أغمض عينه!

فجاء على ذكر العين وهي الحاسة الثانية بعد الأذن، في لفتة كريمة تلك أذن ضرب عليها من الله ومحجوبة عن السمع وهذه عين مفتوحة ترهب من يحدق بها والأصل أن تكون مغلقة! فهذا التغيير والتناوب لافت يثير الإعجاب!!! قدرة بالغة فعلًا.

لماذا جاء القرآن بهذه الصورة؟ ليس من أجل إرهاب وتخويف الإنسان وإنّما من أجل أن يعطيه درسًا في البيان أنّه الله قادر على تغيير ما عهده الإنسان من أطوار، يريد الله أن يغيّر الصورة المعهودة والنمط الذي يعرفه البشر عن هيئة النائم ليحرك أحاسيس الإنسان ومشاعره حتى يتفاعل مع الحدث ليعتبر ويتعظ بالتغيير الحاصل،

فجاءت مقابلة بين حالتين في آية واحدة بدقة وتوازن، كيف يكون الإنسان في يقظة ورقود في آن واحد مع أنّ الرقود هو نوم النائم المستغرق اعتبارًا بحال الميت. وناحية علمية بقاء العين مفتوحة للمحافظة على بقاء مائِها وفي إغلاقها فقدان ملامحها وتلف ماءها ولم تعد صالحة، فمن القادر على بقاء هذا للإحياء وأصحاب الكهف هو الله!!! وهذا يدركه أهل الاختصاص من الناس، مع أنّ الأذن والعين حارسان أمينان على السمع والرؤية، فحجب السمع وإيقاف العين مفتوحة آية من آيات الله.

إنسان راقد بهذه الصفة تحسبه يقظان وهو في سبات عميق، كالميت إن علمت ذلك تصيبك رهبة منه كأنّه ينظر إليك وأنت تحسبه كذلك وهو ليس ذلك! فالصورة الواصلة للسامع والرائي وحتى القارئ يجد رهبة في نفسه كيف يكون هذا؟ وكيف حصل؟ فيأتي الجواب من الله ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ لماذا هذه المؤثرات والإيقاعات التي تقرع السمع والبصر معًا؟! حتى يدرك البشر قدرة الله، فكل إنسان تصله الرسالة من خلال رؤيته وسمعه، فالمؤمن تصله الصورة فيزداد إيمانًا فوق إيمانه، والآخر تصله الصورة كما هي على فطرتها ويشوهها عقله وفكره ويطمسها قلبه ومنه سمي الكفر

كفرًا لأنَّه يسْتُر كل شيء ويغطي الحقيقة ولا يظهرها، ومع هذا ينسى الإنسان ويغفل عما يحصل لنفسه التي بين جنبيه، قارن بينك وبين هؤلاء الفتية، فمالكم لا تؤمنون ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

انظر بما تخدمك الأقدار بحكمة الربّ الرحمن، هل تعلم ماذا يحصل لك عندما تنام؟ خذ مثالًا هذا اللعاب الذي يحمي الأسطح الداخلية التي تغلف جدار الفم ويمنعها من الجفاف كيف يتم ابتلاعه، يقوم الدماغ بإصدار الأمر إلى صمام الحلق بإغلاق مجرى الهواء ويسمح بدخول اللعاب إلى الجوف لا إرادي وأنت نائم، تصور لو لم يحصل هذا ودخل اللعاب باتجاه الرئة وأنت مستغرق في نومك، إذًا اشكر الله الذي سخر لك تلك الخدمة المجانية وإلّا نمت نومة أبدية، قل الحمد لله.

وَنُقَلِّبُهُمْ

هذه هي الصورة الثالثة الحركية من داخل الكهف، وتتوالى الآيات القرآنية في تصوير الحدث ونقله مباشرة ومعه تتحرك المشاعر مع كل حركة تأتي عليها الصورة، فكل كلمة تؤدي دورها بامتياز وتعطي كمالا للمعنى في التفكير الأدبي والعلمي والديني والأهم العبرة في الاستفادة من القصص القرآني الرباني.

"وَنُقَلِّبُهُمْ" من الذي يقلبهم؟ الله لا إله إلا هو الحي القيوم، انظر ماذا يفيد التقليب والتحريك للنائم الراقد أو للمريض فجسده بحاجة ماسة للحركة في فراشه بواسطة نفسه أو من يقوم على تمريضه؛ وذلك لأنّ الجلد يحوي أوعية دموية دقيقة يتدفق الدم فيها وحتى تبقى الحياة مستمرة في الجلد لا بدّ من التقليب والحركة، فثقل الجسم على جهة معينة بالذات يغلق تلك الأوعية ويمنع تسرب الدم فيها ومع المدة الطويلة تبدو تقرحات موجعة ومؤذية وتلف للجلد، هذا بالنسبة لمن كان على قيد الحياة فكيف بمن هو راقد بلا حركة، وقيل أنّ النائم يتحرك أربعين حركة في ليله متقلبًا من أجل الحفاظ على بقاء جريان الدم في شعيرات الجلد وهذه الحركة لا إرادية، فهو يلبي حاجة ملحة تعمل بأمر الله.

يا ترى ما حاجة هؤلاء الفتية لمثل هذا التقليب وهم في حكم الأموات، هم ليسوا أموات هم رقود فقد جعل الله لهم حياة خاصة بهم وتكفل بتقليبهم، "وَنُقَلِّبُ هُمْ" فإذا فصلت الكلمة جزئيين فهمت أنّ إرادة الله هي التي تقلبهم وليس جهة أخرى، لو قلت حركة لا إرادية فهم أصلًا فاقدي الإرادة إذًا التقليب لهم بإرادة الله.

وقد ورد في القرآن حالة مماثلة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ آل عمران: 169، فقد أثبت القرآن كرامة للشهداء حياة خاصة بهم عند ربهم فحركة وأصحاب الكهف حركتهم ليست ذاتية وإنما عناية ربانية، فالتحريك ليس عشوائيًّا وإنّما بتدبير رباني، فالسكون الدائم يؤدي للتلف فلا بدّ من التقليب ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ فالمقصود بكلمة ذات هي نَفْسُ الشَّيء وعَيْنُه، الَّذي لا يختلف عن آخر في حقيقته وجَوْهَره، الَّذي هو مُطابِقٌ له ومُعادِل ومُساوٍ تَمامًا له، فجهة اليمين مساوية لجهة الشمال في كل شيء من التقليب، فتحريك جهة اليمين تتحرك كل جزئية منه من أخمص القدم إلى الرأس، وكذلك جهة الشمال بالمثل فلا يحصل تقرحات ولا تكلسات، وهذا يعرض أجسادهم كاملة لأشعة الشمس وغيرها كما

هي أجساد الأحياء تتزود من تلك الطاقة، فقد تساووا مع الأحياء في هذه الناحية ولم يتساووا معهم في نواحي أخرى كثيرة مع أنّ العنصر هو واحد "الإنسان"، إنسان حي تقوم أعضاؤه بوظائفها وآخر تكفّل الله بها .

ودليل الإعجاز أنّ الحي بإرادته يتقلب في نعمة الله ويأخذ القسط الكافي من أشعة الشمس، بينما أهل الكهف نحن الذين نقلب أجسادهم، ما أعظم قدرة الله ورحمته بالإنسان وهذا منتهى الحنان.

ومن الترابط والتناسق بين الآيات تجد أنّ آية "ونقلبهم" وآية "وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت" لهما ارتباط مع بعضهما؛ وكأنّ الكلمات حركتها متصلة بحركة طلوع الشمس ودرجة ميلانها عن الكهف ومن فيه، وكذلك الغروب وانعكاسه يوافق حركته وحركة التقليب ذاتها الموافق لمراد الله، فالآتيان بذات العبارة "ذات اليمين... ذات الشمال" يفيد التوافق والانسجام لا التنافر والتعارض، وهذا مما يزيد من التمسك والثبات والمتابعة.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء: 82.

وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ

ثمَّ تأتي صورة تبين التكامل ما بين الإنسان والحيوان فهو خادمه الأمين، وحتى تكتمل الحياة بكل أشكالها دون نقصان ولا يترك القرآن من أسدى خدمة لأصحاب الكهف وهو كلبهم، فجاءت الآية تصور هذا الحيوان في أحسن بيان.

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيد﴾ صورة للكلب باقية ومصاحبة له في حياته لا تتغير، وجاء القرآن ووصف هذه الصورة الجميلة المريحة للنفس وكأنّها ريشة فنان أو نحت على جدارية الزمان بهذه الكيفية الناطقة النافرة ملامحها الواضحة التي لا ينقصها بيان فمَا وجدت أحدًا يأتي بجماليتها إلّا آيات القرآن، وهي الصورة المتكررة المعهودة للكلب في وضع حراسته عندما يأخذ مكانه ويبسط ذراعيه ويضع رأسه بينهما في حالة استعداد، حتى يهابه كل إنسان.

لفتات وحركات تضفي دلائل اتفاق وتكامل بين المخلوقات، وحتى لا يرد أي سؤال أو تفكير فجاء التذكير "وَكَلْبُهُمْ"، هذه هي علاقته بهم ليس كلبًا متطفلًا ولا ضالًا وقد أخذ مكانه المخصص له هذا الذي سخره القدر له فتبعهم فجاء ذكره خالدًا في القرآن وله شأن يتلى إلى آخر الزمان، وبالمقابل يفهم من الآيات أنّها توحي أنّ من

يشرك بالله لا شأن ولا مكانة ولا قيمة له عند الله وأفضل منه الحيوان، فالمشرك يرد ذكره في القرآن من باب التشهير به ومن أجل العذاب له والحرمان ومصيره الذي سيؤول به إلى النار، والكلب ورد ذكره فهو أعز وأجل مكانة من غيره ممن لم يقدم خدمة كخدمته في ذلك المكان.

ويضاف إلى ذلك الإعجاز، إعجاز في اختيار الكلمات وجزالتها وظلالها بحيث تؤدي معناها كاملًا، فكلمة الوصيد: لفظ تنتمي إلى مجموعة ألفاظ منها الغلق والختم والقفل ومنع الحركة من داخل الشيء إلى خارجه، ومن خارجه إلى داخله. وقد مثل هذا الدور ذلك الكلب الباسط يديه في الوصيد ومن يتابع الآيات ويشاهد الحركات يصل إلى نتيجة أنّ كل كلمة لها مجالها ومدلولها لا تتعداه فكأنّها خلقت له، خذ مثال في كلمة "فجوة" و "الوصيد" فالكلب ليس في الفجوة وإنّما في الوصيد المعد له القريب إلى باب الكهف؛ وذلك لأنّ الفجوة لها دورها ومهمتها في تلقي الهواء وضياء وأشعة الشمس، والوصيد مكان له مهمته ومخصوص بصاحبه الكلب، فكل آية كاللبنة المعدة له لا تغادره وإلّا اختل البناء.

ولذلك كان كلبهم مهمته هذه محددة كمخلوق لأجلها –الحراسة والحماية في الوصيد– وهو بهذا يشكّل رادعًا وحاجزًا ومهابة وخشية وذلك من خلال وجوده في ذلك المكان، وكأنّ القرآن يضعنا ويعطينا شرحًا وافيًا لتكامل الحركات وأشخاصها وأدوارها شارك بها إلى جانب الإنسان الحيوان كما جاء ذكره في القرآن:

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم...﴾ الأنعام: 38.

لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ

يعود العرض مرة أخرى من داخل الكهف، تلحظ التنقل بين الآيات والكلمات والحالات والمُتابع مشدود قلبه وعقله وفكره ينتظر النتيجة وهو يسمع الكلام يتردد صداه وينساب بكل عذوبة.

ثمَّ تأتي هذه الصورة الثانية "لو اطلعت عليهم" تنبئ أنّ مجرد الاطلاع صورته مرعبة ومخيفة، كسابقتها "وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد" وما ورد في بداية الآية "وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود" فلا يستطيع أحد أيًّا كان أن يرى تلك المناظر ويجتازها دون تأمل وتفكر...

انظر الآيات وترتيبها:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾

﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾

﴿بِالْوَصِيدِ﴾

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾

﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾

مشاهد وأدوار كلها حركة وأعضاء بشرية تنبض بالحياة وهي تتحرك بإرادة ربانية ومعاني وكلمات قرآنية تؤدي هذه الحركات في آيات بين يقظة ورقود، ويمين وشمال، وكلب بالوصيد، وهيئة واطلاع وفرار، كل كلمة أخذت دورها المخصص لها لا تحيد عنه، فجاءت الكلمات تتابع كالأشخاص الذين يمثلون أدوارهم، فكانت الألفاظ والمعاني في مشاهد أريد بها بيان رحمة الله كيف انتشرت على هؤلاء الفتية وأمثالهم من المؤمنين بصورة تمَّ اختيارها من لدن عليم حكيم، فهي ليست تمثيلة ولا مسرحية تنطوي على مشاهد رومانسية، وإنّما قصة واقعية حصلت تحت رعاية إلهية ذات أهمية إيمانية، وأُعطي أصحابها هيبة ومهابة وكرامة وحماية ربانية حتى كانت لهم هذه الصورة "لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ" مجرد نظرة عابرة أو استكشافية داخل كهفهم لمَا تجرأت أو تمالكت نفسك من الدخول ولأصابك الرعب والخوف والذهول من شدة ما ترى عينيك، ونعكس ذلك عليك فلم تعد تتمالك أعصابك أو تحملك رجليك، ولا تقف عند هذا الحد من الخوف وإنّما فرار لا يَلوي على أحد خلفك وقد ملكك الرعب وسيطر عليك، إذ الخوف وما رافقه منعك الدخول ووليت

هاربًا مجرد رؤيتهم، فالفرار أداة حماية لهم وطرد كل من يقرب أو يحوم حولهم أو يفكر بالمجيء طرف كهفهم أو شاهد بنفسه أو حدثه غيره عنهم، رعب لا مثيل له يملأ النفوس ولا يدع مجالًا للاطلاع أو التأكد ممن هم داخل الكهف.

فكلمة "الرعب" غطاء رباني وستار حماية لهم دون غيرهم، تصور بالله عليك الفرار إذا صحبه رعب، كيف تكون حالة هذا الإنسان وقد وولّى هاربًا كله رعب، لم يعد إنسان عادي فهو في اصفرار وخَوِر، فعلًا صورة لا يستطيع وصفها إنسان إلّا كما تليت في هذا القرآن وستبقى صورتهم مطبوعة في مخيلة كل إنسان في العقل والقلب والإحساس وإن لم ترهم لا يمحوها الزمان من ذاكرة الأجيال ويبقى لها هيبة وجلال ليعتبر أولوا الألباب في القصص القرآني الذي أنزل في هذا الكتاب، فقد اكتمل مشهد أصحاب الكهف وكلبهم وانتهى تصوير المشاهد والأدوار في ذلك المكان وقد أحاطت بهم هالة من الرهبة والحسبان، وجاء ذكرها في القرآن في أحسن وأجمل بيان: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾حتى لو تخيلت هذه الصورة الآن فإنك لن تجرؤ أن تدخل عليهم الكهف مما ورد لك من حالهم ومآلهم...

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ

الآن اتخذت الآيات منحى جديد بعد أن تناولت الحياة الخاصة بأصحاب الكهف بكل دقة وحرفية ثمَّ أزيح الغطاء والستار بعد مرور سنين عديدة، وأتضح مراد القصة القرآنية، وبعد هذا الحديث الطويل عن أصحاب الكهف وتلك المشاهد والمتابعة الحثيثة المثيرة للمشاهد والقارئ والسامع مع الحركات والصور وكأنّه حفل ممتع أزيحت ستائره لترى كل ما كان الحديث عنه أمامك.

الآن جاء البعث وقد دبت حركة الحياة في أوصالهم بأمر الله عز وجل فبعثهم، فبدأت الآية بكَلِمَةٌ "كذلك" وهي كَلِمَةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ ذَا الإِشارَةِ، وَحُذِفَتْ أَلِفُها لِدُخولِ لاَمِ البُعْدِ عَلَيْها وَالكافُ كافُ الخِطابِ وَهِيَ اسْمُ إِشارَةٍ لِلبَعيدِ، إذًا الكلمة بمجملها تفيد أنّ البعث يأخذ مدة طويلة بعيدة سواء ما كان لأصحاب الكهف أو البعث الموعود، فهو مرحلة زمنية انتقالية تطول وتقصر بأمر الله.

ثمَّ انظر التأكيد على موضوع البعث، فلا أحد يتجرأ أن يدّعيه أو يأتي به إلّا الله، خذ مثالًا كلمة "بَعَثْنَاهُمْ" (بَعَثْ/ فعل... نَا/ ضمير... هُمْ/ضمير) كل هذه الضمائر تدل أن صاحب البعث هو الله لا أحد سواه.

وجاء في أول قصة الكهف "ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ" وأعيد تكرارها هنا مرة أخرى "وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ" من رقودهم وتقلبهم ونومهم الطويل على هيئتهم التي كانت "وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ"، كذلك فالصورة توضح وتعطي لأي إنسان كان أنّ الله هو من يبعثهم بعد نومه وهي صورة تقريبية لما سيكون عليه بعث الموتى للخلق كافة، فهو إثبات بطريقة تجريبية ملموسة فيها نوع من التهديد والوعيد لكل منكر للبعث وقدرة الله على ذلك.

وتأتي هذه المرحلة بالذات وتطرح تساؤلات فيما بين أصحاب الكهف؛ فقد شعروا أنّ الوقت قد طال وفات إلّا أنّهم غير متأكدين من المدة وطولها، وهذا التساؤل مقصود ليبيّن أنّ أصحاب الكهف بالذات لا يعرفون ما الذي حصل لهم وكم هي المدة التي مكثوها في كهفهم فهم في حيرة وعدم يقين، إذًا من باب أولى ألّا يجتهد أحد في هذا الموضوع ويترك الأمر فيه لله؛ فهو الذي يقص القصة على نبيه بوحي منه، إذن لا تشغل بالك وخليك على حالك بالتسليم لله العليم الحليم، وسرد الآيات جاء بصور فريدة بنقل الحدث لكلّ إنسان أيًّا كان!! فالآية توحي أنّ بعثهم كان على الهيئة التي ناموا عليها وإلّا لم يكن ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ...﴾ فالتساؤل

تعدّد السائلين، كلّ منهم يسأل الآخر في حالة من الاستغراب والارتباك والذهول، وقد لا ينتهي هذا التساؤل بمعرفة الجواب، ومن هنا كان تساؤلهم لعلّ وعسى أن يكون عند أحدهم جوابًا! ومثله ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

ولنسمع ما دار بينهم من محاورة وحديث:

–قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ: كَمْ لَبِثْتُمْ؟ (أحدهم سأل سؤالا مستفهمًا به).

قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ (جاء الجواب أغرب من السؤال! دليل عدم معرفتهم بالمدة أصلًا).

قَالُوا: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ (يقينًا لا علم لهم بما لبثوا من مدة في الكهف وسلموا الأمر لله).

إذًا التساؤل كله يدور حول مدة اللبث وهي المدة التي مكثوها داخل الكهف، ومع هذا ما وصلوا لجواب! عندها فوضوا أمرهم لله، فمن خلال حديثهم فيما بينهم أَحَسّوا أنّه قد طال نومهم إلّا أنّهم غير متأكدين بالضبط كم هي المدة، ولم يلحظوا تغير شيءٍ على أشكالهم من تاريخ فترة دخولهم الكهف حتى بعثهم، وليس كما يصورهم بعض الناس أنّهم أصبحوا وقد تغيرت هيئاتهم وصفاتهم

وظهروا بصورة شيوخ حفاة عُجُز، هذا كله طبعًا باطل وكذب وعلى خلاف ما ورد في القرآن.

يا سلام ما أحلى الكلام! بعد هذه المحاورة كان جوابهم واحدًا: ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ...﴾. انتهى التساؤل، وتأكدوا الآن يقينًا لا يخالطه الشك ولا الريبة أنّ نومتهم قد طالت زمنًا لا يعلمه إلّا الله، وأول ما يصحوا النائم من نومه يشعر بالجوع وحاجته للطعام، وقبل هذا كله كان الله يطعمهم ويسقيهم ويمدهم بفضله ورعايته بالكيفية التي أرادها...

"فَابْعَثُوا أَحَدَكُم"

بعثان مختلفان في آية واحدة:

البعث الأول: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أيقظناهم من نومهم للحياة مرة ثانية، وقد أشار القرآن إلى طرف من هذا البعث وهو استمرارية حياتهم التي كانوا عليها سابقًا...

والبعث الثاني: البحث عن الطعام بإلحاح من أجل ديمومة الحياة وبقائها، وهذا ينبهنا أنّ الله كان يكفيهم طعامهم وشرابهم بالطريقة التي لا نعلمها، كقوله صلى الله عليه وسلم عن نفسه: "...إنِّي أَظَلّ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي"، إذًا فضل الله على هؤلاء الفتية فضل

كبير فهو الذي يكفيهم طعامهم وشرابهم. وعندما انتهت مدة هؤلاء الفتية أول مبادرة عادت لهم غريزة طلب الطعام واعتمدوا على ما بين أيديهم من مال، وقد استقر بهم الحال بعد المداولة والمساءلة واجمعوا رأيهم على: ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾، فقالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ...﴾، فقد وجدوا معهم بقيت مال تزودوا به خلال خروجهم وقد تركوا خلفهم سوقًا يتعامل بالفضة وما شابهها، والغريب لم يرسلوا أو يطلبوا طعامًا من معارفهم أو يسألوا عن أهليهم! أمر في غاية الحذر والتخلي عن كل علاقة تربطهم بالكفر الذين اعتزلوهم.

آية تحمل دقة في اللطافة والمعاملة وحذر شديد خوفًا وتحسبا أن يقعوا صيدًا ثمينًا للكافرين ﴿فَلْيَنظُرْ...﴾ ترقب ونظر في المعاملة مع الآخرين هذه وصيتهم لرسول طعامهم مهمة في غاية الأهمية والخطورة يترتب عليها رجم حتى الموت.

يظهر أنّ حاجتهم للطعام كانت ملحّة وشديدة ﴿أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا...﴾ تنبيه لنوعية الطعام هو مطلبهم الآن دليل رغبة في سد جوعتهم جميعًا، الذي يظهر كلهم كانوا جوعى، لا إله إلا الله الذي كان يكفيهم طعامهم تلك المدة الطويلة. تصور لو منع عنك الطعام

أيامًا قليلة ماذا سيحل بك؟؟؟ ومع هذا نحن نلهو ونلعب وقد ننسى شكر المنعم على إنعامه، لأنّنا هكذا تعوّدنا على عدم انقطاعه بفضل الله وإمداده لنا، كل سنوات اعمارنا وأيامنا من أطعمة وشراب شتى، فهو خالقنا ورازقنا

إذًا الطعام رزق يسوقه الله إليك من جهة لا تعلمها أنت، قال تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ...﴾، رزقك قد يأتيك بحرًا أو جوًّا أو برًّا حتى يصلك ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ...﴾، حديث الطعام شيّق وزاكي ورزق حلال يسوقه الله للعبد في موطنه فلا تعجب. وما زال الحذر قائمًا والخشية من اكتشاف أمرهم وارد، وكانت وصيتهم لصاحبهم: لا تنسَ كن لطيفًا في معاملتك ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ...﴾، فهم يحسبون كل حساب أن يكتشف أحد مكانهم، كلمة جميلة كلها خفة في تركيبتها. حتى البيع والشراء يحتاج إلى لطافة، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ سَمْحًا إِذَا اشْتَرَى سَمْحًا إِذَا اقْتَضَى" رواه البخاري.

والله لا يوجد حذر وخوف أشد من ذلك يتوقف عليه مصيرهم إمّا إعادتهم أو قتلهم رجمًا، ووصيتهم لصاحبهم إياك ثمَّ إياك ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ حتى مجرد الشعور والإحساس أو لفت الانتباه

ولو بحركة تنبئ أو تدل عليهم من أي شخص كان، فهم لا يريدون أن يجلب رسولهم أي شبهة على مكان كهفهم حرصًا منهم غير معهود، فلمتابع للقصة يعلم أن أمرهم وتخفيهم قد أنتهى بأمر الله وهذا أول طلبهم للطعام الذي كان مكفولا لهم من الله ،ومنها الأدلة هيئتهم وشكلهم وعمولتهم وتوجسهم وتغير حال بلدهم فكان المشاهد يتحرك معهم ويقول هاؤم أهل الكهف، فهذه تجربة قرآنية وتربية ربانية لكل جيل يخاف ممن لا يخاف الله، فالحياة تحتاج للتخطيط السليم لا التهور والتسرع حتى لا تقع لقمة سائغة لهؤلاء المجرمين، فهو درس بليغ لكل معتبر.

لنتعلم من قصة أصحاب الكهف حسن طلب الطعام الطيب الزاكي وليس أي طعام كان ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ..﴾، نشكر الله الذي أطعمنا وأسقانا وجعلنا مسلمين له.

❁❁❁

إن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ

تطرقت الآية السابقة لتساؤلات أصحاب الكهف –كم لبثوا في نومتهم– أخذًا وردًّا بينهم ولم يصلوا لجواب مقنع، فتركوا وفوضوا الأمر لله، ثمَّ اتفقوا فيما بينهم أن يرسلوا رسولًا من قبلهم من أجل أن يأتيهم بأزكى طعامًا.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا...﴾، فهم في تساؤلهم هذا تركوا الأمر الأهم وأشغلوا أنفسهم في أمر تولاه ربُّ العالمين عدد السنين وهي المدة التي مكثوها في الكهف، وكانوا في رعاية الله وحمايته من كل شيء يسيء إليهم أو يلحق بهم ضررًا، وهذه من فوائد القصة أنّ ما كان في رعاية الله فهو يحفظه ويرعاه.

ثمَّ جاءت الآية الكريمة التالية: قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾، من المؤكد أنّ هذا التساؤل وارد ومن باب التذكير على طريقة أسلوب الحكيم على أنّ الأولى والأهم أن يفطن هؤلاء الفتية فيما لو ظفر

بهم هؤلاء القوم الكافرين وتمكنوا منهم لتعاونوا وتجمعوا عليهم؛ لِيُعلنوا سخطهم بهم بسبب إيمانهم بالله، إمّا بالرجم أو الإعادة لملتهم وعندها "ولن تفلحوا إذا أبدا".

ولأجل إيمانهم هذا حالَت قدرة ربّ العالمين أن ينالوا ما بأنفسهم من فتية آمنوا بربّهم؛ لأنّهم دخلوا في حماية الله، وقد صرح القرآن بذلك: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾.

ولنعد إلى الآية الكريمة موضوعنا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ...﴾ من باب التمَكّن والغلبة، فلو تمكن هؤلاء الكفر واكتشفوا أو عثروا عليهم لكان هؤلاء الفتية بين حالتين إمّا الرجم أو الإعادة، مع أن قومهم قد هلكوا مع من هلك من فترة ثلاثمائة سنة ماضية، فموضوع الرجم غير وارد ولكن هذا هاجسهم وحديث أنفسهم وتوجسهم أن رقودهم لم يأخذ مدة طويلة؟!

ومع هذا نأتي للحديث عن هذه الخواطر ﴿يَرْجُمُوكُمْ...﴾، فالرجم أشد أنواع العذاب وهو منتهى التشفي والحقد عليهم والانتقام بسبب واحد هو الإيمان، وقولهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا...﴾ وهذا الموقف شبيه بموقف أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾

فتشابهت طرق العذاب وإن تفاوتت الأقوام فالعذاب هو العذاب وأساليبه تتنوع من ظالم لآخر...

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ...﴾، والملة ما كان عليه قومهم من لزومهم الكفر دون انفكاك عنه، وهو ما أخرج الفتية هروبًا بدينهم فيذكرهم الله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ النساء: 141.

والصورة الأخيرة ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ بيان فضل الله عليهم وتحذير لكل من يخالف أمر الله ويعود لملة الكفر بعد أن أنقذه الله منها، وأنه لن يفلح من ترك الهدى إلى الضلال.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة: 257، أي إنّ عدتهم إلى ما هم عليه من كفر فقد فاتهم الفلاح والصلاح والنجاة، وبهذا تتضح الصورة في الآية الكريمة والله أعلم.

إِذْ يَتَنَازَعُونَ

"إذ يَتَنَازَعُونَ" كلمة توحي إلى حصول خلاف وجدال قد يؤدي إلى نِزَاعٍ وخِصَامٍ، وهذا هو الجزء الثاني الذي تحدثت عنه القصة القرآنية بعد العثور على أصحاب الكهف.

﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ عندما كان أصحاب الكهف في رعاية الله وحمايته فقد كان أمرهم لله وحده لا يشاركه فيه أحد فلا منازعة ولاَ مُشَاحَّةَ في ذلك، وعندما أصبح الأمر للذين عثروا عليهم تفاوتت الآراء والطروحات واختلفوا وانقسموا إلى فريقين:

الفريق الأول: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ قد يكون من أجل المحافظة عليهم كما هم عليه.

قبل هذا كله هنالك حلقة وعنصر لا نقول إنّه كان مفقودًا؛ فقد تركته الآيات لأمر كان لإرادة الله وهو أنّه بعدما أن عثروا عليهم ماذا فعلوا بهم؟ فهل بمجرد ذلك عادوا وماتوا وكيف كان ذلك؟ وهل دفنوا على ما هم عليه ومن تولى مهمة ذلك؟ وهل أبقوا كلبهم معهم؟ وكيف عرفوا أنّهم أصحاب الكهف؟ وهل قصتهم معروفة لديهم ومن هؤلاء القوم؟؟؟؟ إلى آخر تلك الاستفهامات والتساؤلات التي وردت على الذاكرة وتُرِكت للإنسان يبحث

ويتوقع ويتخيل لها جوابًا، صحيح هي ليست ذات أهمية إلا أن الإنسان لديه حب الاستطلاع عليها، وهي متروكة لعلم الله؛ لأنّه مهما حاولنا أن نصل إلى نتيجة تبقى تساؤلات دون جواب فهي ليست ذات أثر وقد ذكرنا أن القصة القرآنية ليست سردا تاريخيا وإنما تشويقا قرآنيا.

وما هي إلّا إعمال للعقل لا إهمال له حتى يفكر الإنسان ويعتبر، والتفكير يجعلك من المتابعين والمهتمين بهذه القصة القرآنية؛ لأنّ مصدرها القرآن، قال الرحمن: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾.

نعود للبناء فأول اقتراح طرح عند الاختلاف: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ أبقوهم على مكانهم وأبنوا على كهفهم بنيانًا يحفظهم على ما هم عليه، ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ وهو رأي محترم في نظرهم وسديد، وهذا ما توصل إليه اجتهادهم، لا يوجد أجمل من هذا الكلام، ربّهم هو أعلم بهم.

الفريق الثاني يظهر أنّهم أهل غلبة والأكثرية: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ رأوا رأيا آخر وأكدوا عليه فقالوا: "لَنَتَّخِذَنَّ"، وهذا دليل حسم النزاع من قبل أصحاب السلطة والقوة والأغلبية.

وهذا يظهر أن كلا الفريقين له اهتمام بأصحاب الكهف لمكانتهم عند الطرفين، وأنهم أهل عبادة وتوحيد وسجود لله لقولهم: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، وهذا تقريبا هو الذي حصل بعد المداولة، ولا يفهم من ذلك أنّهم يتخذونهم من دون الله أولياء حاشا لله، فقومهم الذين كانوا مشركين بالله على زمانهم قد هلكوا بشركهم ومضى وقتهم، وقد أتى من بعدهم قومٌ آخرون مؤمنون بالله والله أعلم، وإلّا لما طرحوا فكرة المسجد وبِنَائه.

❁❁❁

سَيَقُولُونَ

قاربت قصة أصحاب الكهف على النهاية، فبدأت الآية بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾، تكرر ذكر "كَلْبُهُمْ" دليل على أهميته ومكانته منهم وعظم شأنه دون نسيانه. إذًا لا تستهين بالحيوان فكما أنت مخلوق من مخلوقات الله لك دور في الكون وهو كذلك.

تباين العدد المختلف فيه غير مهم سواء عرف أم لم يعرف؛ لأنه لا يترتب عليه إعجاز قرآني، فالمعجزة قد تحققت فيما سلف من حديث الآيات عن أصحاب الكهف، فهؤلاء القوم حسبوا وظنوا في عددهم وكل ذلك تخمين لا أساس له من الصحة، فمنهم من يقول ثلاثة رابعهم كلبهم رجمًا بالغيب، وبدأت الآية بالسين وهي دليل عدم معرفة عددهم سواء من الحاضرين أو اللاحقين، وانشغالهم في أمر لا يهمهم، فلا تشغل نفسك به ويفوت عليك الكثير..

وما ذكره أهل التفسير وقالوا أنّهم أقرب للصواب وأنّ ما قبله تخرُّصات هو قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، قال الإمام الزمخشري: مجيء الواو لم يأتِ هكذا اعتباطًا –موقع الواو– إنّما أتى عن طمأنينة وعن ثبات علم وهو بذلك يفيد التحقق والاهتمام، وصرفوا النظر عمّا سبق من أنّهم ثلاثة رابعهم كلبهم، فكان ذلك كله ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ والله أعلم.

الأهم من ذلك كله هو تحقق المعجزة بالعدد الذي أراده الله، والكيفية والزمان والمكان والظروف التي واكبت القصة، ولا ثمرة تترتب على معرفة أسماء أصحاب الكهف أو عددهم ولا حاجة للمجادلة والمراء الذي قد يؤدي للخصومة مع الآخرين في القول والتردد في أمر يعلمه الله.

ثمَّ جاء قول رسولنا صلى الله عليه وسلم بكل ثقة واطمئنان وتسليم: "قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم"، وطالما الأمر كذلك لا حاجة لمعرفة القصة من أي أحد كان إلّا ما قصّه القرآن الكريم.

والذين يعلمون عدد أصحاب الكهف قليل هم ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ولا حاجة إذًا لمجادلة أحد بخصوصهم أو سؤاله عنهم، وحَسْبُك ما قصصنا عليك وعلى أمتك....

واليهود أصلًا هم الذين أشاروا على مشركي مكة طرح هذا السؤال بداية القصة من باب التشكيك والإحراج، فجاء الرد حاسما عليهم وسريعًا من العليم الخبير: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ ودع عنك كذب أقوالهم بمعرفتهم قصة أصحاب الكهف فمعرفتهم لا تتعدى إلّا ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾.

إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا

عنوان جديد، وعتاب جميل راقي في كل المعايير من ربٍّ رحيم لرسولٍ كريم محمد صلى الله عليه وسلم ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ فكيف مع رسوله الكريم!

تُعدُّ هذه الآية مدونة سلوك لكل البشر بربط مشيئتهم بمشيئة الله خالق الكون ومالكه مدبره ومسيره وفق إرادته، كالِاسْتِخَارَةَ: "فإنك تَقدِرُ ولا أقدِرُ، وتَعلَمُ ولا أَعلَمُ، وأنت علَّامُ الغُيوبِ".

نتذكر بدايات القصة وتكليف بعض المشركين سؤال اليهود عن أصحاب الكهف لرسول الله عليه الصلاة والسلام وسبب نزول الآيات وردِّه على سؤالهم: "غدا أجيبكم"، فتأخر الوحي خمسة عشر يومًا عن الإجابة لحكمة أرادها الله، فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلية التي هي في علم الله "إني فاعل ذلك غدًا" من دون أن يقرن ضعفه بمشيئة الله، وهذا وإن كان لسبب خاص وموجهًا للرسول صلى الله عليه وسلم فإنّ الخطاب تعليم عام للمكلفين، فعلًا تذكير وربط محكم للأمور كلها بإرادة الله وهي النتيجة المستخلصة من القصة بعد عرضها، فقد جاءت الآية الخاتمة: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ قبل النهاية وهذا

هو الأدب في العتاب وطرح الأسباب واستعراض قدرة الله وأنّ كل شيء لا يتم إلا وفق إرادة الله.

وهذا درس آخر من قصة أصحاب الكهف لمّا أرادوا الهروب بدينهم توكلوا على الله ومشيئته ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، عندها توالت الآيات الكونية تشرحها الآيات القرآنية بحفظهم ورعايتهم، وهو المطلوب من كل إنسان أن يربط الأمر بمشيئة الله حتى يكون صادقًا مع الله، فمن يملك غدًا سوى الله؟ فلو صادفك مرض أو منعك ظرف قاهر أو حال الموت بينك وبين ما عقدت النية على فعله ولم تستطع فعله ولم تربطه بمشيئة الله، فهل تكون قد صدقت مع نفسك أو مع الآخرين؟ طبعا لا، فأنت لا تملك نفسك التي بين جنبيك، فكيف تملك ما هو خارج سيطرتك وقدرتك، الزمان والمكان؟ فهذه تربية من نوع خاص وتعليم للجميع من ربِّ العالمين أن نعرف حدود قدرتنا، عندها تعلم رضيت أم أبيت أنّه لا يتحرك متحرك ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وإن كنت تعلم ذلك ونسيت ليس إصرارًا وعنادًا فقد أرشدك الرحمن إلى أحسن ذكر وبيان ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾،

إذًا النسيان معفي منه الإنسان بنص القرآن بعد ذكرك الله وتعلقك به، إذًا لا تنسَ ذكر الله...

إنّ من مدونة السلوك أن تقول ما العمل إذا نسيت شيئًا وترغب أن تتذكره أو مر بك أمر من الأمور تهرع فورًا إلى ذكر الله، (فالرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة) أخرجه أبو داود. ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أمّا الإصرار على عدم ذكر الرحمن فهذا إنكار وجحود وكفران لا عفو عنه ولا تساهل فيه، وإنّما ضلال في ضلال. ويستفاد من قصة أصحاب الكهف أنّهم ربطوا حياتهم كلها بالله، دقق في الآيات التاليات:

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، فالرحمة لا تأتي إلّا بأمره وتهيئة الظروف من قبله وهذا مالا يملكه الإنسان.

﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾، لا أحد يملك نشر رحمة الله ولا تهيئة ما يحتاجه الخلق من مأوى وطعام وشرب وجميع ما ترتفقون به إلّا من الله.

﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾، فمن منا يهدي أو يهتدي إلى طريق الحقّ إلّا بهداية وتوفيق من الله لمن أحبه الله، وهذا ما أكدته الآية الكريمة التالية: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾.

كل الآيات تكررت مع أصحاب الكهف تشهد لهم بالهداية والإيمان، وفي المقابل جاءت آيات أخرى تبين مصير وحال ومآل المشركين: ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً...﴾ سخافة واستهزاء واستصغار لهم لاختيارهم الشرك.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فالشرك ظلم عظيم وكذب كبير على الله.

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ المخالف لهدي الله ضال ومضل ولا أحد يملك هدايته.

﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ لم يعد للمشركين أي فوز وفلاح بعد الضلالة، وهذه نتيجة خطيرة ولا يوجد بيان أوضح من هذه الآيات في تقرير مصير الإنسان.

❀❀❀

وَازْدَادُوا تِسْعًا

دقة التعبير القرآني دليل الإعجاز ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾، الذي يظهر لأول وهلة أنّ الكلام فيه زيادة على الأصل، فكيف حصل مجيء هذه الزيادة التسعة؟

قال العلماء اليوم الواحد يتحدد بطلوع الشمس وغروبها، فالشمس تطلع وتغرب فهذا يوم، فاليوم مرتبط بهذه الحركة وهو ما يعرف بدوران الأرض حول الشمس، على خلاف القمر يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلا قليل النور، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشر، ثمَّ يشرع في النقص إلى آخر الشهر، فالليلة والشهر مرتبطة حركتهما بحركة دوران القمر حول الأرض، وهذه منزلة وعددها ثمانية وعشرون، والمنزلة فسحة ينزل بها القمر ليلة واحدة ثمَّ يغادرها.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ الأنبياء: 33، فالقمر في كل ليلة له منزلة لا يتخطاها لغيرها، قال الله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ...﴾ قَدَّرَ الله سَيرَه في منازِلَ؛ ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ...﴾ فالشمس تحدد اليوم،

وحركة القمر تَعلَموا بها حِسابَ اللَّيالي والشُّهورِ، وهي حركة دائبة، ﴿مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ...﴾ كل ذلك قدره تقديرًا.

﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يونس: 5، هذا التفصيل الرائع والتوزيع بين مهمة الشمس والقمر، الأولى مُبالَغة في ضياء الشمس وسطوعها.

والثاني: القمر خُصَّ بالنُّورِ وهو أقل سطوعًا من الضياء ويستمد نوره من انعكاس أشعة الشمس عليه، فيأتي ضياء الشمس دليلًا عليه ومُنوّرًا له بعد فقده لضوئه، فالتوقيت هذا خص بالقمر دون الشمس فهو أدق بالحساب، قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ إذًا الأهلة مواقيت للناس والعبادات، فأشهُر الحَجّ والصَّومِ حتى براءة الرحم عند المرأة مرتبط على حِسابِ القَمَرِ وسَيرِه ونُزولِه في مَنازِلِه لا على حسابِ الشَّمسِ وسَيرِها؛ حِكمةً مِن اللهِ ورَحمةً وحِفظًا لدِينه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ...﴾.

ومَعرفةَ ضَبطِ الأشهر القمرية بآية كونية ظاهرة للعيان وهو القمر هذه نِعمةٌ أنعَمَ الله بها على البشر كافة وأمة الإسلام خاصة لحاجتهم

لضبط وقت عباداتهم، فالأشهر الشمسية لا تتغير أعدادها بينما الأشهر القمرية حركتها دائبة، فالصيام والحج قد يأتي مرة صيفًا ومرة أخرى شتاءً وكل ثلاثة وثلاثين عامًا تأتي هذه الحركة وهكذا...

ومن هنا فتح الله على الفاروق عمر بن الخطاب وبمشورة الصحابة الكرام –رضي الله عنهم– بربط هذه الأمة وتميزها بالتوقيت القمري الهجري الخاص بالمسلمين بالذات.

والسؤال الذي يطرح نفسه كيف يأتي التفاوت بين الأشهر الشمسية والقمرية؟

قال صلى الله عليه وسلم: "الشَّهْرُ هَكَذَا وهَكَذَا يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وعِشْرِينَ، ومَرَّةً ثَلَاثِينَ" رواه البخاري.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ ياسين 39، فهذه هي المنازل المقدرة بثمان وعشرين منزلًا في ثمان وعشرين ليلة من كل شهر، ويستتر القمر ليلتان إن كان الشهر ثلاثين يومًا، وبهذا يكون التفاوت بينهما. ويدخل القمر فترة المُحَاقُ وهو الوقت الذي يختفي فيها ضوء القمر فيه يسمى الاقتران فتكون الشمس والقمر والأرض على استقامة واحدة، فأهل الكتاب عندما سئلوا كم مكث أصحاب الكهف قالوا: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾

حسب التقدير الشمسي لليوم الواحد من طلوع الشمس حتى غروبها.

وجاء القرآن ببيان آخر معتمدًا على حركة القمر ودورانه، قال الله تعالى: ﴿وازدادوا تسعًا﴾ وكأنّ في ذلك لفت نظر وفكر من قوله: "وازدادوا تسعًا" فلم يقل ثلاثمائة وتسع سنين وهذه دقة الإعجاز القرآني؛ فقد عدل عن ذلك وجاء بلفظ وازدادوا، فمن أين جاءت هذه الزيادة؟؟؟ جاءت من الفرق بين السنوات الشمسية والقمرية، فالفارق بينهما أحد عشر يومًا تقريبًا وهي التسع سنوات الزيادة، فالحساب القرآني جاء على غير ما عهده أهل الكتاب، وهذا يثبت أنّ هذه الرسالة خاتمة الرسالات وناسخة لها، فقد تغيرت حتى كافة المفاهيم الدارجة والمعهودة والموافقة لحسابهم، فالزيادة الحاصلة على الثلاثمائة سنة وهي تسع سنوات انسجمت مع الآيات وارتبطت مع حركة القمر لا الشمس التي كان لها دورٌ فاعلٌ مع أصحاب الكهف، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ...﴾ فكان لا بدّ للقمر من دور آخر في هذه القصة كما كان للشمس دور فاعل ظاهر كما ذكرنا آنفًا والله أعلم... هذه هي قصة أهل

الكهف التي وردت بأحسن وأفضل بيان لكي تثبت الأيمان في القلوب والله ولي المتقين...

المحتويات

{لمحة في القصص القرآني} 5

أهمية قصة أصحاب الكهف 8

المقدمة والمدخل 12

فضائل سورة الكَهْفِ 14

الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ 19

كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا 23

إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ 27

فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ 33

ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ 38

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ 43

وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ 48

هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً 53

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ 55

بين آيتين 59
وَتَرَى الشَّمْسَ 65
وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ 69
وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا 73
وَنُقَلِّبُهُمْ 77
وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ 80
لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ 83
وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ 86
إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ 93
إِذْ يَتَنَازَعُونَ 96
سَيَقُولُونَ 99
إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا 102
وَازْدَادُوا تِسْعًا 106